


الدكتور ابراهيم الكيلاني

# أدباء من الجزائر



دار المعارف بمصر

# أُدَبَاءُ مِنَ الجَزائِرِ

الدكتور ابراهيم الكيلانى

# أدباء من الجزائر

دراسة تحليلية عن كبار
أدباء الجزائر المعاصرين

١٩٢ اقرأ

دار المعارف بمصر

اقرأ ١٩٢ — ديسمبر سنة ١٩٥٨

ملتزم الطبع والنشر : دار المعارف بمصر — ٥ شارع ماسبيرو — القاهرة

« إن المهم عندى أن نجد فى آثار كتاب أفريقيا الشمالية أناساً من لحم ودم يشبهون الذين أراهم حولى » .

مولود فرعون

« يخيل إلى أن أدباً قوميا بكل ما فى هذه الكلمة من معنى واسع وسخيّ هو فى طور التكوين ، وهذا ينطبق بنوع خاص على الجزائر » .

محمد ديب

« . . . الأدب مرجع ثابت ، وكتاب جماعى يحوى صوراً وعواطف وارتكاسات ، وبالاختصار هو انعكاس لروح الأمة » .

عامر جديرة

إلى

جميلة بوحيرد

التي تجسدت فيها روح الجزائر المعذبة

أهدى هذه النفحة العطرة
من أدب بلادها .

ا . ك .

# الأدب الجزائرى الحديث

## توطئة

الأدب الجزائري أدب مستقل ، ذو خصائص ذاتية مستمدة من البيئة التى يعيش فيها الشعب الجزائرى فهو أدب قومى وإن شارك الجزائريين فيه كتابٌ فرنسيون وأجانب ولدوا وعاشوا فى إفريقية الشمالية ، لأن أدب هؤلاء تجاوز فى تصوراته وموضوعاته المحيط الإفريقى إلى آفاق تتصل بالأدب الأوربى والروح الأممية أكثر منه بالأدب العربى والروح العربية ، فهو أدب مصطنع ، مجلوب ، غريب ، فى حين أن الأدب الجزائرى الذى يكتبه كتاب جزائريون هو أدب واقعى ، فيه انعكاس لروح الأمة الجزائرية فى عواطفها وارتكاسها تجاه الوجود ، وأمانيها وأساطيرها وتقاليدها . فالأدبان منفصلان متميزان يصدران عن عالمين منفصلين متميزين : اللاتينى والعربى .

ومن الغريب ، بل من سخرية الأقدار أن يجتمع هذان

الأدبان فى نقطة مشتركة هى لغة التعبير ، فإن الأدب الجزائرى الحديث يكاد يكون كله مكتوباً بالفرنسية لا بالعربية ، نعم ! بلغة فرنسية عالية لا تقل فى رقيها ونصاعتها وروائها عن لغة أكبر كتاب فرنسا المعاصرين . ومرد هذا الشذوذ إلى الأوضاع التى خلقها الاستعمار الفرنسى فى تلك البلاد منذ مائة وسبع وعشرين سنة ، فقد عمل الاستعمار عند احتلال الجزائر — التى فوجئت به ولم تكن قد أعدت له العدة واستكملت مؤهلاتها العلمية والقومية — أقول : إن الاستعمار عمل على القضاء على اللغة العربية وإحلال الفرنسية مكانها تمهيداً لعملية الامتصاص ودمج الشعب الجزائرى فى الأكثرية الفرنسية وربط مقدراته بفرنسا مباشرة ؛ وبما أن الفرنسية هى لغة المستعمر القوى فقد ترتبت على ذلك أمور وجد الجزائريون أنفسهم إزاءها أمام أمرين : إما أن يتلقوا علماً بسيطاً محدوداً يعطى على الطريقة البدائية القديمة لا يوفر لصاحبه شيئاً من التقدم والمنافع والارتقاء فى السلم الاجتماعى ، أو علماً يدرس فى مدارس منظمة ، حديثة توفر للطالب مزايا عقلية ومادية تساير التقدم والحضارة الحديثة ، فاختاروا الثانى — إن كان ثمة اختيار — بل لقد وصلت المأساة إلى حد أن زهد الجزائريون على مر الزمن

باللغة العربية ، وأقبلوا بحكم الواقع الاستعماري على تعلم الفرنسية جاعلين منها لغة تعبير وتخاطب وثقافة وعلم ، شأنهم فى ذلك شأن الهنود والباكستانيين فى اعتمادهم على اللغة الإنكليزية حتى صارت لغتهم الرسمية الخاصة . وهكذا فقد وجدت اللغة والثقافة الفرنسيتان مكاناً فارغاً فى الجزائر فاحتلتاه ! .

وهذا لا يعنى أنه لم يكن بين الجزائريين من يجيد اللغتين ويتذوق الثقافتين ، إلا أن هؤلاء على قلتهم أصيبوا بما يصاب به كل متأرجح بين لغتين وثقافتين من تمزق فى الشخصية الذى يؤدى — إن لم تسعفه الظروف والمواهب — إلى العقم والجفاف ، لأن إحدى اللغتين كما يقول الجاحظ تأخذ من الأخرى ، وتكون الغلبة فى مراحل هذا الصراع للغة القوى الحاكم الذى يمهد لها سبل التوغل والنمو والانتشار .

ويقيني أنه فى اليوم الذي يتحرر فيه الجزائريون من محنتهم الاستعمارية ، فيتعلمون ويجيدون اللغة العربية ، فإنهم سيكونون فى طليعة الشعوب الغربية المفكرة الواعية ، لأن المادة الفكرية عند الفئة الممتازة منهم موجودة ، والاستعداد الذهنى والنضج العقلى كائنان ولا ينقصهم إلا أداة التعبير بلغة الضاد ، حتى إذا استكملوا هذه العدة ، وسدوا هذا النقص تكون

قد انضمت إلى الفكر العربى المعاصر عناصر حيوية جديدة تشد من أزره وتوسع من آفاقه ، بل أذهب بعيداً فإن تجديد الأدب العربى وبخاصة الروائى والقصصى منه سيكون على يد هذه الطليعة الجزائرية المثقفة من الأدباء والمفكرين .

طلع الأدب الجزائرى حيا قويا ،ولكنه لم يطلع فى دنيا العرب بل فى أدب الفرنسيين فاحتل الأدباء محمد ديب ومولود فرعون وإدريس الشرايبى ومولود المامرى ومالك الوارى ومالك الحداد وكاتب ياسين . وغيرهم مكانهم فى الأدب المعاصر ذى التعبير الفرنسى ، وتميز هذا الأدب من غيره من الآداب فى واقعيته وقوميته وشدة ارتباطه بالأرض الجزائرية التى يعيش عليها شعب يريد الاحتفاظ على الرغم من سياسة التجهيل والإفقار المادى والفكرى بمقوماته النفسية وذخيرته الروحية وطابعه الأصيل ، فلم ينس أدباء الجزائر فى عالمهم الثقافى الرفيع ولغتهم المستعارة الحقيقة المؤلمة التى يعيش فيها أبناء قومهم ، بل عملوا ببراعة تحت ستار الفن الروائى على تثبيت صورة الجزائر فى أذهان الفرنسيين ومن يجيد الفرنسية من بنى قومهم ، ففى هذا الأدب مرارة وألم قلما يرتفعان إلى حد المطالبة الصريحة بالإصلاح والعدالة ، أو يهبطان إلى التضرع والشكوى ، بل بقى هذا

الأدب ضمن التعبير الهادئ الجميل يجلله الشعور بالكرامة والإيمان بالحق وعدالة القضية ويسوده الإباء والترفع .

إن الصفة البارزة فى الأدب الجزائرى الحديث هى « الواقعية » التى تعكس الأشياء والحياة والتجارب الفردية والجماعية فى إطار فنى ، فهو إذن أدب حقيقى كتبه أناس من صميم الشعب عميقو النظرة إلى الوجود ، شديدو الحساسية بالصلات الإنسانية التى تربط بين الناس ، تتطور وتتموج فى أدبهم شخصيات متنوعة الأشكال والشيات فتبدو فى صراعها الداخلى مع ذواتها وفى تفاعلها مع العالم الخارجى المستكينة لمشيئته حيناً والثائرة المتمردة عليه حيناً آخر ؛ ولا أقصد بالإطار الفنى ذلك الفن المجرّد المتعالى عن محيط الكاتب فيعوقه عن تحقيق رسالته المفيدة بل الفن الذى يعكس الحقائق فى شكل حسّى والذى يصدر أحكاماً على مظاهر الحياة تلك الأحكام التى من شأنها إيجاد الوعى وخلق المعرفة بين طبقات الشعب فى سبيل القضاء على عالم فاسد يدعمه نظام استعمارى فاسد وتحقيق عالم أفضل وحال أحسن .

إن كتاب الجزائر يشكلون الطليعة الواعية التى فهمت الماضى ووعت الحاضر وتطلعت إلى المستقبل .

إننى سوف لا أعرض لجميع كتاب الجزائر شارحاً أو محللا آثارهم فالعمل أصعب من أن أقوم به بل سأقصر كلامى على خمسة منهم وهم: إدريس الشرايبي ومحمد ديب ومولود فرعون وكاتب ياسين ومولود المامرى ولم يكن انتخابهم على سبيل الترجيح والتفضيل بل تبعاً للظروف التى يسّرت لى اقتناء آثارهم دون سواهم .

## ١ ـ إدريس الشرايبي

من كتاب الطليعة الذين بنوا لأنفسهم مجداً ومكانة مرموقة في الأدب الفرنسي المعاصر ، ولفت أنظار النقاد فانقسم هؤلاء بين محبذ : معجب ، متحمس ، منصف يرى في آثار الشرايبي صدى لمساوئ الاستعمار وما ينطوي عليه من جرائم فظيعة ، وبين ناقم غاضب مبغض يرى في آثار الشرايبي وسواه من الكتاب الجزائريين كفراناً للجميل والنعمة ، وتنكراً للغة التي يكتب بها ، وإنكاراً لعمل فرنسا الحضاري التمديني في أفريقيا الشمالية ! وقد أسهم الجانبان في التعريف بالشرايبي والدعوة له . تلقى الشرايبي علومه الأولية في بلدة تلمسان ، ثم رحل إلى باريز يدرس الكيمياء ، ولعل دراسته لهذا العلم يفسر هذه البراعة في التحليل والدقة في الملاحظة واصطياد النواحي الخفية وتثبيت الصور الآبقة التي يلحظها بعين المفن الواعي الموهوب .

واشتهر الشرايبي بروايته « التيوس » وهي رواية قوية عبر فيها عن حياة أديب جزائري جاء فرنسا ليكتب ويعيش من

أدبه وفنه . ولكن أنى له ذلك وهو من قوم دون أهل البلاد ؛
وذو عقلية مخالفة لعقليتهم ونظرة للوجود لا تمت إلى نظرتهم
بصلة ولذا عاش ساخطاً متبرماً ناقماً على الذين حرموه نعمة
الحياة وأفسدوا عليه عيشه وأذلوا نفسه ؛ فلم يمكنوه من الارتفاع
فوق المستوى الذى يعيش فيه مواطنوه « التيوس » وهم الجزائريون
الذين رحلوا إلى فرنسا للعمل فى معاملها ومزارعها . وقد استطاع
الشرايبي أن يعبر عن آلام مواطنيه. فقد عاش معهم « يأكل
ما يجد ، وينام حيث يتيسر له مكان للنوم ؛ ويشتغل أحياناً
حسب الظروف عاملا ، وبائع صور خلاعية ، وحمالا وعامل
منجم فى الأعماق الكبرى » ولذا تراه صور لنا جميع الأوساط
التى مر بها وذاق مرارتها وبؤسها . وأنت ترى أنه لم يقف موقف
الروائى الوصاف بل استحال فى روايته إلى فرد من بنى قومه ؛
وجزء من كفاحهم حتى ليتساءل المرء فى بعض أجزاء الرواية
عما إذا لم تكن هذه ترجمة ذاتية للمؤلف .

كيف يعيش هؤلاء الجزائريون فى فرنسا . وما هى الظروف
التى أدت بهم إلى هجر بلادهم والعيش فى ديار الغربة ؟

إن لهؤلاء الجزائريين قصة مؤلمة أوجدها الاستعمار وسوء

الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية فى الجزائر ، وخلاصتها أن هؤلاء القوم لم يهاجروا إلى فرنسا كما يدعى الاستعماريون بدافع من « ميل غريزى عند الجزائرى للرحلة والتنقل » ولم يهاجروا طلبًا للمتعة واللهو . بل لعل هذين الأمرين جديران بأن يصرفاهم عنهما ، فإن أكثرهم وعددهم يربو على الثلاثمائة ألف من طبقة العمال الزراعيين ، فعوضاً عن أن يشتغلوا فى فرنسا بالزراعة اشتغلوا — وذلك لرخص أجورهم — فى أكبر الصناعات مشقة وقذراة ، وأشدها فتكاً بالصحة كالصناعات الكيميائية والزيتية ومصافى النفط والصناعات الفولاذية والحديدية الثقيلة والمناجم وبخاصة العميقة منها ، فهم ينتقلون فجأة من مناخ حارّ مشمس إلى بلاد قارية كثيفة الضباب والرطوبة ، يجابهون هذا المناخ القاسى بثياب رقيقة يرتدونها فى الفصول الأربعة على السواء ، وهم إلى أميتهم يعيشون فى بلاد يجهلون عادات أهلها ولغتهم ، أتوا إلى فرنسا دون مال أو أسرة بعد أن غرر بهم مواطنوهم فيتجمعون حسب القرى والبلدان التى خرجوا منها ، يتكدسون فى أكواخ حقيرة ، محرومين من الغذاء ، تنتشر بينهم الأمراض السارية ، يقطن أربعة أو خمسة أو ستة رجال فى غرفة واحدة يستأجرونها بأفدح الأثمان ، يطهون طعامهم

بأنفسهم اقتصاداً بالنفقة من جهة ، وأنفة من المطبخ الأوربى من جهة أخرى . فإلى جانب فئة ضئيلة من هؤلاء المهاجرين الذين جاءوا إلى فرنسا ليعملوا فى مهن حقيرة نجد الأكثرية منهم لا هم لهم سوى جمع كمية من المال والعودة بسرعة إلى بلادهم ليتحرروا بما جمعوه من قبضة المرابين الذين رهنت عندهم مزارعهم وأراضيهم .

ولهذه المشكلة أسباب أخرى حرصت فرنسا على بقائها تؤدى كلها إلى انخفاض مستوى اليد العاملة والتوسع فى سياسة الإفقار والتهجير .

أما بداية المغامرة كما يراها إدريس الشرايبي فى رواية « التيوس » فهى فى تلك اللوحات الإعلانية المنصوبة على الجدران فى مدينة الجزائر القديمة أي فى الأحياء العربية ، وهى تغرى الجزائريين بحروف حمراء هائلة بالرحيل إلى فرنسا ، لأن فرنسا بحاجة إلى أيد عاملة ، وأن الديموقراطية خصبة فى تلك البلاد ، وأن على من يريد الرحيل أن يسجل اسمه فى الوكالة التى تدفع له حتى نفقات سفره .

حتى إذا وصل هؤلاء المهاجرون بعد أن باعوا ما يملكون

أو استدانوا مبالغ من المال لقوا المصير الذى ينتظرهم فعوضاً أن يجدوا العمل والرخاء تلقتهم البطالة بشبحها المخيف ، فأعطوا بطاقة العطالة ، وهى من الورق المقوى ، مستطيلة الشكل يحملها كل عربى « لكى يكون على وفاق مع المجتمع الذى نبذه » ثم يقضون أياماً طويلة يتسكعون أمام مكاتب العمل قبل أن ينحدروا إلى مهاوى البؤس والانحلال ، فقد أتوا من بلادهم وهم شديدو الأجسام أقوياء البنية فإذا بهم الآن « يدخلون ويخرجون ، هزيلى الأجسام ساغبين ، لاغبين ، يشبه بعضهم بعضاً كأن لهم وجهاً واحداً ، كامدى اللون وضع لكل منهم ثقب إضافى على بطاقته فيضعها فى محفظته بعد أن يطويها بعناية ، ويربطها بخيط ، وكنت تسمع عند خروجهم صوت تذمرهم وسخطهم على الحياة فى سبحة طويلة من الشتائم » .

وكذلك كان مصير بطل الرواية كمصير مواطنيه ، بطالة قاتلة للكرامة ، ومشجعة على الخسة والجريمة فهو يقول عند تسلمه بطاقته التى لا تسمن ولا تغنى من جوع مخاطباً المكلف بمكتب العمل : « لقد أكلت بطاقتى ، ولكنها لم تسد جوعى ، ويلزمنى كيلو من البطاقات كل يوم ، وبما أن الله سيعيد

خلقى كل يوم فإنى أطالبكم بكيلو من البطاقات ، فهى الكمية التى تلزمنى » .

ولو أن هذه البطاقة وهذا التعويض داما لخففا من بؤس هؤلاء المساكين ، ولكن عهد البطاقات قد انقضى حتى بات من الذكريات الحلوة . فقد كان هؤلاء العمال يتذكرون وهم يقهقهون ، ذلك الدور الاجتماعى من حياتهم حين كانوا يحملون بطاقات العطالة يختمونها فى يوم معين ويرسلون إلى ذويهم فى الجزائر جزءاً مما يقبضون حتى قال هؤلاء : « وإن المسيحيين يدفعون لأولادنا مالا دون عمل ، وأصبح من الصعب الحؤول دون لحاق النساء والأولاد والأقارب والأصدقاء بهم إلى فرنسا » .

كان من الطبيعى أن يفقد هؤلاء المهاجرون كرامتهم ، وأن يصبحوا فرائس سهلة للانحطاط الخلقى . وأن يعيشوا عيشة المنبوذين ، عيشة أقرب إلى الحيوانية منها إلى الإنسانية وقد حفلت رواية « التيوس » بالمشاهد الواقعية المذهلة التى تترك فى نفس القارئ أصداء نفسية مؤثرة :

« كان المهاجرون ينامون فى أقبية يصعب على المرء

اجتيازها إلا منبطحاً . وهى محرومة من الضواء والنور ، لا يخرج ساكنوها منها أبداً ، وإذا خرجوا منها اتخذوا الحيطة اللازمة فأحلوا ولو وقت قصير مواطنيهم محلهم ، مسلحين بالمدى ، مستلقين على فرشهم ينتظرون إيابهم . ستون عربيا فى كل قبو يحمون بضراوة ما يسمونه ملكهم وشخصياتهم ، وما هذا وتلك سوى فرش هزيلة رقيقة كدف خشبية . سوداء ، تحرك رائحتها الكريهة الغثيان . شغلت مساحة القبو بأكملها ، تفصل بين فراش وآخر حدود رمزية ، ولكنها حتمية إلزامية كالعقيدة ، ولا يستطيع الإنسان المنطوى المكث فى الفراش إلا بعناء لأنه يجهل ما وضع فيها . فهى إلى جانب وظيفتها كأداة للنوم تقوم فى الوقت ذاته مقام الخزانة وطاولة الطعام ، ومستودع الحاجيات وأنواع الأوانى والسلع والمقالى وعلب الكونسروة الفارغة وقطع إطارات الكاوتشوك وكسرات الخبز اليابس ، كما مدت فى القبو حبال من جدار إلى آخر علقت عليها ما عجزت الفراش عن استيعابه . وكذلك الوصول إلى الفراش والاستلقاء عليه لا يمكن اكتسابه بالتعلم فهى هبة موروثة ! إذ على الداخل أن يعرف كيف يقفز منثنياً من الباب إلى الفراش دون أن يصدم شيئاً من سقط المتاع المعلق على الحبال وإلا نشب القتال الهائل ،

ومع ذلك فعلى الفرد أن يعرف كيف يكتفى بالمساحة الضيقة ، وألا يشخر فى نومه إلا إذا سبقه الآخرون فى شخيرهم بزمن بعيد ، وأن يشخر معهم حسب الإيقاع وارتفاع الصوت أو انخفاضه ، وإذا لسعه القمل والبق فلا يحكن جلده ؛ لأن حكة صغيرة تهدم هذا القصر الورقى ، ومع ذلك فإن أية محاولة لقتل هذه الطفيليات مضيعة للوقت لأنها والصراصير والعت خصبة جدا وعنيدة ، ونشيطة .

نعم إن فى القبو لمبة كهربية معلقة فى السقف ، مصونة بقفص حديدى يطفئها صاحب الدار حسب مشيئته ومزاجه من منزله فى الطابق العلوى ، كما أن سواها من الأضواء ممنوع إطلاقاً ليس من قبل صاحب الدار فهو لا تطأ قدماه القبو أبداً ، بل من نزلائه الجزائريين لأنهم لا يريدون أن يرى بعضهم بعضاً ، ويأبون أن يروا بؤسهم ، وهم يتسامحون إلى أبعد حد بهذه اللمبة الكهربية المغبشة القذرة البائسة مثلهم .

وتدفع أجور هذه الأقبية كل أسبوع مقدماً ، وهى غالية جدا ، أسعارها أقل بقليل من أجور الفنادق المشبوهة ، ولكن صاحب الدار يستغل « النواحى الوراثية فى العرق العربى التى

تحتم ألا يعيش العربى ويظهر ويموت إلا عربيا وفى وسط عربى » .

وهل بلغك نبأ الحبال ! هى حبال قوية من مرس الكتان ، شدت إلى جدارين على علو ذقن إنسان ، طويلا أو قصيراً ، وقد وضعت تحت الحبل مقاعد يجلس عليها النائم مسنداً ذقنه على الحبل ، ويدفع النائم لقاء كل ساعة نوم مبلغاً معيناً حتى إذا انقضت الساعة امتدت إلى النائم يد تهزه بدون شفقة ! .

أما اليقظة فهى مفجعة ، تتفكك الكتلة البشرية كحزمة من سلاح يعلوها أنين كأنين الكلاب ، وشخير وفرقعة عظام وشتائم .

كان الحنين إلى بلادهم يطغى عليهم فى شكل قاتم غامر كالمد ، وكانوا حريصين على التأخر فى العودة إلى المأوى ما أمكنهم التأخر ، فيظلون وسط الضباب الشمالى يرتجفون من البرد ويسعلون ويبصقون ، تصطك أسنانهم ويدخنون اللفائف التى لا نهاية لها ، مفتخراً كل واحد منهم بالعمل الذى حققه ذلك النهار ، وعدد طوفات الفحم التى انتزعها من الأرض ، كانوا يضحكون ضحك المصروعين ، وهو تأكيد للحالة

السخيفة غير المعقولة التى يحيونها ، هل شاهدتهم يسيرون فى شوارع فرنسا بخطى متثاقلة ، وأيد تلوح ، ووجوه شاحبة . . . ينبعث من أنوفهم البخار ، يمشون بمحاذاة الجدران ، الواحد تلو الآخر كالجرذان المتسللة حتى إذا وجدوا أمامهم منعطفاً ناتئاً ، مفاجئاً كالسد وقفوا جامدين لحظة وقد بهرتهم الضجة المنطلقة من زمامير السيارات وفرامل العجلات ؛ وخطوات الجمهور المحمومة ، وألوف المظاهر المبعثرة لحياة ليست حياتهم » ؟

إن مأساة هؤلاء الناس مثلثة : مادية ، ونفسية ، وعقلية :

مادية فى كونهم عاشوا فقراء محرومين ، بل إنهم « لم يعيشوا أبداً ، إذ كانت حيواتهم مجرد انتظار ورغائب ، وكبت » .

ونفسية « لأنهم فضلات ورواسب حضارة لم يتكيفوا معها » فطحنتهم هذه الحضارة برحاها الثقيلة فلم يبق لدينا كما يقول البطل ، من معانى الحياة سوى الاختلاج والتخلع ، وغدا اتصالنا بالمجتمع عن طريق السباب والسرقات واللكمات ، فإننا نأكل وننام ونرى ونسمع ونعيش فى جو من الثورة والحقد » .

ويتجلى هذا البؤس المعنوى فى عبارة أخرى نطقت بها سيمون خليلة البطل قالت : « عندما التقتطك من الأرض لم أشهد بؤسك ، إننى لا أعرف ولا أريد أن أعرف ما هو البؤس ، فإذا كنت تعنى هذه الثياب الرثة ، والجلد الوسخ ، وتلك اللحية القذرة ، وهذه المعدة التى ثقبها الجوع ، بل هذه العطالة عن عن العمل ، فليس هذا ما أسميه بؤساً ، فهو بؤس مادى ، زمنى ، لا أهمية له ، أما البؤس الحقيقى فهو بؤس النفوس ، بؤس لم يخلقه فيك فرنسى أو تاريخ ، فهو آت منك وحدك وستموت فيه . »

وعقلية : تكمن فى تلك الوحشة التى تنتابهم بين عالمين استحال فيهما التفاهم بين الفكر العربى الإفريقى الإســلامى والفكر الأوربى ، عالم هؤلاء المهاجرين بلغته وتقاليــده وعاداته وأسسه النفسية والأخــلاقية ، وعالم غريب يعيشون على هامشه ، فلا يفهمون لغته ، ولا يستسيغون عاداته، ولا يؤمنون بمفاهيمه ومثله فى الحيــاة ، فيعيشون فيه غرباء ، منعزلين بعد أن استحال عليهم إيجاد أرض مشتركة للتعايش ، وروابط وصلات للتفاهم مما جعل المؤلف ينطق البطل بهذه العبارة : « لقد مضى على عشر سنين

ما برح فيها دماغي الناطق والمفكر بالعربية يطحن بصورة سخيفة المفاهيم الأوربية دون جدوى حتى تحولت تلك الأفكار إلى ضغائن سممت الدماغ نفسه . »

وفى هذا رد بليغ على الزعم القائل : إن الشعب الجزائرى العربى قابل للامتصاص والتمثل وإن الجزائر أرض فرنسية ! « لأن الفرنسيين يتفلسفون ، ويضعون الخطط والمشاريع ، وينظرون إلى القضية من زوايا مختلفة ، دينية واجتماعية ومادية ، ولكنهم جميعاً لا يعرفون شيئاً عن حياة العربى ونفسيته فهم يطيرون فوق العرب كما يطير المرء فوق مدينة فيرقبها من عل جالساً على مقعد وثير بعد أن يكون قد ملأ بطنه ، وعكس دماغه حاملا معه ووراءه وأمامه وفى داخل نفسه الفرضيات الرياضية القائلة إنهم وحدهم البداية والنهاية والمادة والعقوبة ، وإنهم يعرفون كيف يعيشون ويخلدون وأنهم وحدهم يملكون الحقيقة والخيال ، كما أن الاقتصاد يجب أن يوضع على صورتهم » .

فعلى من تقع التبعة فى النهاية ؟ هنا أيضاً أنطق المؤلف خليلة البطل وهى تطرد صاحبها خارج دارها : « ثم هذا هو

استغلال الأوربيين للجزائريين ، إنى أنكر هذا دون ريب ، إنى ساخطة على هؤلاء الذين أخرجوكم من دياركم ، فهم لا يعلمون ما يصنعون بكم حتى عجزوا عن الرأفة بكم ، ، نعم إنى أعرف إعطاء الأشياء حقها ، إنى أعترف بأن حضارتنا لم تستطع شيئاً سوى إلقائكم فى بحران اليأس ، إنى لأستحى أن أكون أوربية ، ولكن أنتم أهل أفريقيا الشمالية الذين أنقم عليكم أكثر ، لأنكم أنتم المسئولون عما وصلتم إليه ، لقد كنتم دوماً عرضة للاستغلال ، أنتم أردتم أن تستغلوا فى بلادكم قبل مجىء الفرنسيين ، وكنتم فى كل زمان مستغلين ، إنكم كالأعراق المتردية تتعاوركم الأيدى والأجيال والعصور كالأرض ، الفينيقيون ومن بعدهم اليونان والرومان والقوط والفنداليون والأتراك والفرنسيون ! »

وهكذا استطاع المؤلف أن يحقق غرضه فى كتاب « التيوس» فقد عرض شقاء قومه على أنظار الجميع فى شكل كتاب فهو عبارة عن ثلاثمائة صحيفة مطوية تضمنت جانباً من الحقيقة الجزائرية :

وفى الرواية صور بديعة صنعتها يد مفن صناع نورد بعضها : .

قال يصف عيني راهب : « كانت عيناه وراء نظارتيه مسطحتين لا حياة فيهما ، كأنهما كرتان من مادة ( البلاستيك ) أنزلتا بعناية فى محجريهما » .

وقال يصف أكولا : « ثم شرع فكاه يطبق أحدهما على الآخر كأنهما سكينا مقصلة ! » .

وقال يصف أحلام الجائعين : « . . حتى إذا أثقله النوم سمع ضربات أسنان وقضما ومضغاً ، وكانت الحركة تلاحقه حتى فى النوم ، قوية ، آلية كأنها أحناك قطيع من الذئاب مقعية حول أرنب هزيل تنهش لحمه ، وتمضغه فى الليل فى مكان مقفر متجمد من البرد حيث لا يعثر فيه على أرنب واحد إلا مرة كل ستة أشهر ، ولكن هناك برد وجليد ووحشة !

وقال يصف مفوض مكتب العمل الفرنسى : « انتفشت فى رأسه المتورم أهدابه وشعر ذقنه ، ولم يكن له حاجبان بل كانت له عروتان من جلد أصفر تتوسطه حبتان سوداوان مدورتان لامعتان هما عيناه » .

وآخر : « جفناه جامدان كأنهما صنعا من ترابة الأسمنت تثبتان عينيه المصوبتين نحو جهة واحدة » .

٢٧

قال يصف البطل وهو يقبض على خصر خليلته النحيل :

« ولو أردت إطباق يدى على خصرها لسمعت تفقيعاً يشبه تفصم هيكل عصفور » !

أما هى فقد نظرت إلى عينيه فإذا « هما غارقتان تحت حاجبيه المقوسين اللذين يبدوان كحافة قبعة ، فقالت فى نفسها : كأنه يريد أن يحتمى من الحياة ! »

## ٢ ـ محمد ديب

قلت فيما سبق إن الأدب الجزائرى أدب جديد ، ذو خصائص قومية بارزة ، يستمد ذاتيته ونسغه من البيئة التى يعيش فيها الشعب الجزائرى ، ولم يحل الاستعمار الذى ناء بكلكله البغيض على الجزائر دون بروز هذه الخصائص ، وهذا الأدب وإن كتب بلغة فرنسية فهو يعبر من وراء الحجاب اللغوى عن أعمق الأسس الروحية والاجتماعية التى يقوم عليها ماضى الشعب الجزائرى وحاضره ، كما يعكس بوضوح صراع هذا الحاضر مع الأوضاع الاستعمارية التى تصده عن البروز وتقف دون نموه .

نحن الآن مع كاتب جزائرى آخر هو محمد ديب مؤلف رواية « البيت الكبير » ولد فى تلمسان فى ٢١ تموز سنة ١٩٢٠ ، وبعد أن درس فى مسقط رأسه ثم فى مدينة وُجدة زاول عدة مهن مكنته من الاتصال بالطبقات الشعبية الكادحة ، والاطلاع على نفسيات أهلها وأحوالهم المعاشية ، فقد عمل صانع سجاد ،

ومحاسباً فى محل تجارى ، ثم معلماً وصحفيا إلى أن انقطع للأدب نهائيا فكانت باكورة أعماله الأدبية رواية « البيت الكبير » هى من أروع الروايات فى تصوير الحياة الجزائرية فى بؤسها وشقائها وتناحر ناسها وآمالهم وإنسانيتهم وقساوتهم ، وتجرى حوادثها سنة ١٩٣٩ ومركزة حول البطل عمر وهو صبى دون البلوغ يعيش مع أمه الأرملة عانية فى بيت كبير للأجرة تقطن غرفه أسر العمال الفقراء . وهو أشبه بخلية النحل يتكدس أفراد كل أسرة فى غرفة واحدة ، وتسوده فى النهار ضوضاء الأولاد وصراخهم ونداءات النساء ولغطهن وثرثرتهن وحركتهن المستمرة وفوق هذا فقد « احتجزت غرف الدار فى الليل عدداً كبيراً من الأطفال حتى إذا طلع الصباح قذفت بهم إلى صحن الدار فى فوضى وضوضاء لا مثيل لهما ، فالأطفال ذوو اللعاب السائل ، والوجوه اللامعة من أثر المخاط يمرون واحداً واحداً ، وكان من لا يستطيع منهم المشى يزحف رافعاً استه إلى العلاء ، وكانوا يبكون ويزأرون جميعاً ، ولم تكن الأمهات ولا بقية النساء يرين فائدة فى الاهتمام بالأمر . »

ولم يقف المؤلف فى تصوير حياة سكان الدار اليومية موقف المراقب أو الملاحظ الحيادى بل أشركنا من خلال

الولد عمر . وعمر هو المؤلف فى صغره . الذى يعيش مع أمه عانية وأختيه عيوشة ومريم فى غرفة واحدة عيشة بؤس رهيب يسيطر عليهم شبح الجوع والحرمان واليأس من الغد حتّى إن عانية كانت تخاطب ابنها فى ساعة من ساعات ضجرها وبرمها من العيش قائلة : « هذا كل ما تركه لنا أبوك الفاشل ، الشقاء ، ولقد غيب وجهه فى الأرض وانهالت على جميع أنواع البؤس ، فكانت نصيبى فى حياتى كلها ، إنه الآن هادئ فى قبره ، لم يفكر يوماً بإدخار شىء من المال فلصقتم بى كما يلصق العلق ، لقد كنت سخيفة ، كان الأجدر بى أن أهجركم فى الأزقة وأفر إلى إحدى الجبال الجرداء ! »

ولم يتعمد المؤلف فى النواحى الاجتماعية والنفسية التى يبدو على ضوئها أشخاص روايته طلب الإصلاح والتخفيف من آلام مواطنيه بل اكتفى ببسط أمام أعين القارئ لوحات متتابعة بلغ من مهارته فى تصويرها أنها ترسخ فى الذهن حتّى يصعب على المرء الخلاص منها ، فيشعر بعد الانتهاء من مطالعة الرواية بغثيان عاطفى ، مبهم ، ثائر ، يخالطه الأسى والإشفاق على هذا الشعب المعذب يخلف بعده شعوراً بالنقمة والسخط

على الاستعمار والمستعمرين أصل هذا البلاء ، وسبب هذه الرزايا المحزنة .

والرواية على صغر حجمها تجمعت فيها صور ولوحات عن جميع المشاكل الاجتماعيـــة والاقتصادية والنفسية التى خلقتها الأوضاع الاستعمارية فى الجزائر ، كمحاربة اللغة العربية التى هى سلاح القومية . وعمليات التمثل الرامية إلى ذوبان الشخصية الجزائرية فى المحيط الفرنسى ، وسياسة الإفقار والتجهيل التى هى من أبرز صفات الاستعمار الفرنسى كل هذا يؤديه محمد ديب فى سطور قليلة بليغة دقيقة لا نجد مثيلها إلا عند كبار الروائيين ، مثال على ذلك وصفه درس الأخلاق الذى يلقيه المعلم حسن على تلاميذه الصغار ؛ فقد سألهم مرة ما هو الوطن ؟

فلم يفهم الصغار ما تعنيه هذه الكلمة الغريبة التى بقيت بعد السؤال « كأنها معلقة فى الفضاء تتأرجح » فما كان من أحد التلاميذ الراسبين إلا أن رفع أصبعه مجيباً : إن فرنسا هى وطننا الأم !

وكان الجواب وحده سبباً لسلسلة من التساؤلات فى نفس الولد عمر يعالجها بعقليته البسيطة وغريزته العفوية ، فهو يعلم

أن فرنسا عاصمتها باريز ، وأن هؤلاء الفرنسيين الذين يشاهدهم فى المدينة يأتون من فرنسا ، وهم لذلك يركبون البحر فى الغدو والرواح فكيف يصح والحالة هذه أن تكون فرنسا أمه ، وأمه هى عانية ، وهى فى البيت وليس له أمان ، إذن لقد اكتشف الكذبة ، ففرنسا ليست أمه ، وهكذا فقد كان الصغار يرغمون على تعلم الأكاذيب لينجوا من القصاص والضرب بقضبان الزيتون !

ولكن المعلم حسن لم يكن ليترك هذه الفرصة تمر دون أن يفهم تلاميذه فى شىء من العناء والحرج أن الوطن هو أرض الآباء ، وهو البلد الذى استوطنه أهله منذ عدة أجيال ، حتى إذا جاءه الأجانب من الخارج ليحتلوه أصبح الوطن فى خطر ، فهؤلاء الأجانب أعداء يجب على أهل البلاد أن ينتصبوا فى وجوههم ليردوهم من حيث أتوا ولو أدى هذا إلى التضحية بحيواتهم جميعاً ، وأن الوطنيين هم الذين يحبون وطنهم ، ويعملون لخيره وصالحه !

وتجرى حياة الولد عمر كغيرها من حيوات أشباهه من الأولاد المغمورين الهزيلين الحفاة العراة « ذوى الشفاه السود وأعضاء العنكبوت والعيون المتوهجة بنار الحمى ، يملأون أزقة

الجزائر الضيقة ودروبها المظلمة لا هدف لهم فى الحياة ، ولا أمل فى العيش ، ألفوا الفقر وألفهم ، ولصقوا بالشقاء ولصق بهم تمر بهم أيام يتضورون بها جوعاً فلا تجد عانية أم عمر لإسكات هذا الجوع فى أحشاء بنيها بدا من المراوغة ، فتعللهم بالقدر التى تغلى على النار ، وليس فيها سوى الماء. ، كما كانت تفعل تماماً العجوز زمن عمر بن الخطاب فينام الأولاد بعد أن أخرسهم الإعياء ، وأرخى النوم بثقله الرصاصى أجفانهم ، ناموا لأن صبرهم فى انتظار الطعام قد نفد ، ولأن أبدانهم الهزيلة لم تعد تستطيع المقاومة طويلا !

إن هذا الجوع الذى يتراءى فى كل صفحة من صفحات الرواية ذاته الذى يجعل الأم تصيح بلسان الشعب الجزائرى : « نحن فقراء ، ولكن لماذا نحن فقراء ، إن أمها لم تكن تجيبها على سؤالها ، وقال بعضهم إن هذا مشيئة القدر ، وقال آخرون : إن الله وحده يعلم لماذا نحن فقراء ، ولكن هل هذا يكفى ، ولعل الأشخاص الكبار يعرفون الجواب » ! .

وتثور مشاكل الواقع الجزائرى الأليم من خلال المناضل الذى أسماه المؤلف حامد سراج ويظن أنه محمد ديب بعد بلوغه العشرين ، ينطق باسمه ، ويعبر عن آرائه وأفكاره الثورية

تجاه ما يعانيه الجزائريون من الظلم الاجتماعى ، إن حامد سراج
الذى لاحقه رجال الأمن من مكان إلى مكان ، وفاجأوا البيت
الكبير مرات للقبض عليه مروّعين النساء والأطفال هو نفسه —
الذى وقف خطيباً فى العمال الزراعيين الذين جاءوا من أقاصى
الجزائر لسماعه فى بلد يسوده الإرهاب والنظام البوليسى :
« إن عمال الأرض لا يستطيعون العيش بهذه الأجور التى
يقبضونها ، فهم سيتظاهرون بقوة ، يجب أن نضع حدا لهذا
الشقاء ، إن العمال الزراعيين هم أولى ضحايا الاستغلال
المنتشر فى أنحاء البلاد ، إن أجر العامل عشرة فرنكات يوميا
وهو أمر غير مقبول ، يجب أن يطرأ تحسن فورى على حياة
العمال الزراعيين ، ويجب العمل بقوة لبلوغ هذا الهدف
إن العمال المتحدين يعرفون كيف ينتزعون النصر من المستعمرين
وحكومة الحاكم العام ، وهم مستعدون أبداً للنضال » .

وكما أن حالة العمال فى المدن لم تكن بأحسن من حالة
عمال الريف ، ففى الرواية مقاطع تصور هؤلاء فريسة للبطالة
المتفشية بين أرباب جميع المهن وهم كلهم يعانون الجوع
والحرمان ، ويشتغل نساؤهم وأولادهم أيضاً ولكن دون جدوى
وهذا ما جعل أم عمر تصيح قائلة : « . . . حتى ولو عملنا طوال

الحياة لما بقى لنا فى نهايتها سوى ملاجئ العجزة والشحاذة وإذا جاء الموت قبل ذلك حمدنا مجيئه ، فالموت لنا غطاء من ذهب، وإذا لم يأت هذا الموت أو لم يرض بنا ، حتى إذا عجزنا عن العمل وظللنا على قيد الحياة فتلك هى المصيبة الكبرى ، وإذا لم يسع إلينا القبر حينئذ سعينا إليه ، وإذا استطعنا شريناه بالموت ، لقد عشنا على هذه الأرض وانتهى كل شىء فنكون بذلك قد شهدنا شقاءنا إذ لم يبق شىء يغرينا فى هذه الدنيا . »

وفى الرواية صور فنية رائعة تدل على أصالة الكاتب ودقة ملاحظته وامتلاكه ناصية التعبير عن الحقيقة الإنسانية والاجتماعية التى يحياها أبطال روايته الممثلين لأغلبية الشعب الجزائرى ومن هذه الصور الموفقة قوله فى وصف البيت الكبير فى فصل قائظ : « كان الهواء فى الخارج يهتز فيتساقط كالرماد الأشهب ، كل شىء قد غسل فى جحيم من النور ، وكان الأولاد يصطدمون فى كل لحظة بالحواجز التى نصبها حر آب الجاف ، وكانت السماء فى حالة غليان تقىء عجيجاً من الذباب تجلبه الروائح المنبعثة من الحفر ، وكانت هذه النهارات تقذف الحى بروائح جيفية منتنة قوية ، عنيدة لا تستطيع ضربات الهواء ولا هبوط الحرارة فى الليل تبديدها » .

ومن قوله فى وصف بطله عمر النائم فى فراشه : « وكان عمر لا يفتأ عن التقلب فى فراشه ، وقد استولى عليه الأرق ، وكانت ثيابه تزعجه ، وفى الهزيع بدأت الحكة تنتاب كل جسمه ، فكانت الأظافر تكشط طويلا البطن والأليتين والفخذين وكان البق عندما تسيطر الظلمة ينساب من مخبئه متسللا إلى فرش النائمين ومع أن الحيطان كانت مطلية بالكلس فكان يرى كثيراً منه ، وكانت الأم عانية تضىء الغرفة مراراً فى الليل وتسحق عدداً منه ، وفى النهار كنت ترى خيوطاً سمراء طويلة تركتها الأصبع التى قعست البق على الحائط . »

وقوله فى وصف قرية فى أعلى الجبل : « يسكن القرويون فى حفر فى الجبل ؛ والرجال والنساء والأطفال والحيوانات ، وتقع مقبرة القرية فوق رؤوسهم على المرتفع ، وهكذا يسكن الأحياء تحت الأموات » .

وقوله : « وكان ضوء المصباح الكهربى الضعيف ، المجرد عن العاكس ، المعلق فى السقف يثقب الليل » .

تلك هى لمحة عن رواية البيت الكبير التى جعل منها محمد ديب رواية الجزائر القومية والتى حقق بها رسالة الأديب الذى يكشف عن الحقائق التى يعيش عليها الشعب الجزائرى

ولعل فى إظهار هذه الحقائق الاجتماعية إنارة للطريق الثورية التى سلكتها الجزائر نحو حياة أفضل وعيش أحسن .

إن محمد ديب أديب جزائري فذ ، وقد ظهرت بعض نواحى عبقريته من خلال رواية « البيت الكبير » التى صور بها شعب الجزائر فى المدن ، ويظهر أن محمد ديب عازم على التوسع فى تصوير الحياة الشعبية الجزائرية ، والغوص فى أعماقها المجهولة ، فقد أتبع روايته الأولى رواية أخرى أسماها « الحريق » صوّر بها حياة الريف ، وبؤس الفلاحين والعمال الزراعيين ومظاهر صراعهم مع المستعمرين الذين انتزعوا منهم أرضهم جوراً ، وحرموهم القوت الضروري بعد أن جعلوا منهم أجراء ، مساكين ، محرومين من الحد الأدنى للحقوق الإنسانية .

وقد جعل محمد ديب قرية « بنى بوباين » مسرحاً لروايته ، وهى قرية جبلية تشرف على سهول يسكنها المستعمرون ، وتجرى الحوادث بين المنطقة الجبلية الجرداء التى يقطنها الفلاحون المكدون ، والسهول الخصبة التى يستغلها وينعم بخيراتها المستعمرون . فالمنطقتان إذن تمثلان الصراع بين الفقر والغنى ، والحرمان واليسر ، والمغتصب المغلوب على أمره والغاصب المتمادى فى عدوانه . ومظاهر البؤس وإن تعددت فى الريف

فهى نتيجة لعلة واحدة هى الاستعمار وما يجره فى أثره من ظلم ومآس . وإذا كان الجزائري المدنى هو ذلك الرجل الذي يتضور جوعاً ، الحافى القدمين ، الذى لا يستر جسمه سوى أسمال قذرة ، فإن الفلاح الجزائري أسوأ منه حالا ، وإن تغير الوسط بعض الشيء ، ولذا فإن الولد عمر بطل رواية « البيت الكبير » الذى نقله المؤلف إلى الريف ليتمرس بهذه الحياة الخشنة القاسية لم يعجب من بؤسه ولم يتمرد عليه عندما شاهد أمثاله من أطفال الريف الذين يشبهون كما يقول محمد ديب « الجراد لهزالهم وضعفهم » ، فإن « ثيابهم عبارة عن خليط من الخلق المجموعة ، ينتعلون فى أرجلهم جلود الخراف مشدودة بخيطان « المصيص » ، ويركضون حفاة فى أغلب الأحيان ، تفتحت عيونهم ذوات الأحداق السمراء والخضراء على أرض جرداء تركت لهم ، يهيمون على وجوههم فى شكل عصابات ، ويغمرهم المرح وسط الوحل وغبار الطرقات ، وإذا كان يغلب على أطفال المدن الخفة والحدة والطيش فإن أطفال الريف رُضاء ، قد أكسبتهم عشرتهم للحيوانات فى قراهم النائية المنعزلة انكماشاً وسكينة وفهماً أكبر للشقاء ! » .

وقد أولع محمد ديب بالتصوير ، وروايته ملأى باللمحات

السريعة الخاطفة تعبرّ كل واحدة منها عن فكرة اجتماعية أو صورة واقعية ، أو خاطرة نفسية ، ولعل من أجمل صوره تلك المقارنة التي عقدها بين الأولاد الجزائريين البؤساء المشردين وبين أولاد الأوربيين المستعمرين القاطنين فى الجزائر ، وكان المؤلف مسوقاً بحكم بطل روايته الولد عمر إلى الإكثار من وصف الأولاد والأطفال وسرد حوادثهم لأن الطفولة التعسة هي من أهم المشاهد فى تلك البلاد حيث حرم تسعون بالمائة من نعمة العلم والنور قال : « كان الأولاد الجزائريون يلعبون فى شكل عصابات صغيرة وهم دوماً على أهبة الفرار أمام رجال الشرطة الذين يطاردونهم فى كل مكان ، قد ألبسوا أردية عتيقة ، بالية ، ذوات أكمام مشمرة عند المفصلين وفى أرجلهم أحذية رجالية ، صفر الوجوه ، عيونهم سوداء ، ينظرون باستغراب إلى الناس والأشياء ، هم نشيطون لا يفتأون عن التشاجر وملاحقة بعضهم بعضاً ، وبما أنهم مكرهون ومضطهدون من قبل المدنيين وجب عليهم الفرار فى كل لحظة يتبعهم غضب الناس ، إنهم يمتهنون الشحاذة وفى بعض الأحيان النشل والسرقة ، ينظرون بعيون شاخصة ثابتة إلى الرجال والنساء والأولاد الأوربيين ، ينظرون إليهم بل يحملقون بانتباه متجمع

مما يظهرهم أسنّ مما هم عليه فى الحقيقة ، ينظرون بصورة غريزية إلى ثياب الأوربيين الجديدة وأجسامهم النظيفة السليمة التى لم تعرف الجوع ، تبدو عليهم مظاهر السعادة والشعور بالطمأنينة والأمن والصيانة ، فيهم صفات الأدب واللطف والتهذيب التى يبرزونها كثياب العيد والأطفال الأوربيون يخشون عادة أطفال العرب ، وإذا أرادت أمهاتهم أن يخفنهم صرخن مهددات « سأنادى العربى » !

ولاشك فى أن الأطفال الجزائريين ذوو حيوية مبكرة لا تلبث أن تنطفئ رويداً على مر السنين يقتلها سياق البؤس الرتيب والجهل والتعب المتراكم ولعله أيضاً إدمان الخمرة والسجون .

وقد يمكن أن يكونوا غير هؤلاء . . » ويستطرد محمد ديب فى وصف نفسية الأطفال المحرومين فيقول : « وهكذا فإنهم سريعو الحركة ، صامتون قد انتصب أمامهم الآن عالم من القيود والسدود الذى يشعرون بقوته دون أن يفهموا معناه ، فهم يظهرون بغتة من أطراف المدينة تحركهم رغائب غامضة مبهمة . . . فإن أقل حاجة يقذف بها إليهم كالعلب الفارغة ، واللعب المكسورة والجرائد المصورة التى لا قيمة لها تجعلهم

يغرقون فى إعجاب ذهولى ، فيتنازعون ملكيتها بضراوة تخلع على هذه الأشياء التافهة قيمة الأشياء النادرة المثالية ، وكل من يحتفظ بالحاجة بعد معركة أخيرة يحق له أن يرفع غنيمته رمزاً للنصر» .

أما الفلاحات الجزائريات فى قرية بنى بوبلين فهن « ذوات بشرة سمراء ضاربة إلى الشقرة كالعسل أو الذهب ، ولكن هذا لا يدوم طويلا . . . فسرعان ما تغدو أجسامهن كأجسام الحمالين ، تعلو أرجلهن التى تطأ الأرض شقوق عميقة ، يجرن أجساماً هزيلة تبرز منها الأضلاع . . . هذا مع الجوع الهائل الذى يخالط نظراتهن » .

والرواية من خلال الحوادث والأوصاف واللوحات الفنية ذات هدف اجتماعى يظهر إحساس الفلاحين والعمال الزراعيين بحالتهم البائسة ، وبدء الوعى عندهم الذى أخذ فى أول الأمر شكل تذمر وشعور غامض بالظلم ، هذا ويعمل على إيقاظ الفلاحين ، وإنارة السبيل أمامهم وتجسيد أمانيهم وتبلور رغباتهم المبهمة التى تصطرع فى نفوسهم ، والتمهيد لحياة أفضل وأحسن ، وتوضيح نواحى الظلم الاجتماعى الذى يعانون أقول : يعمل على خلق كل هذا مناضلون ذوو تجارب ونضج

وإيمان بحيوية وإمكانيات الشعب الجزائرى فى زحزحة المستعمرين عن مواقعهم . فنى الرواية تسيطر شخصيات حامد السراج الداعية الاشتراكى الذى يلاحقه المستعمرون ، والكوماندار ، وابن أيوب وغيرهم ، فهم الذين يدفعون بنى قومهم إلى التمرد والمطالبة بحقوقهم واسترداد ما أخذ منهم جوراً ، ولكل من هذه الشخصيات أسلوبه وطريقته ولهجته وأفكاره ولكنهم جميعاً يتلاقون فى نقطة واحدة هى إيقاظ الروح الجزائرية التى تراكمت عليها منذ سنة ١٨٣٠ رواسب وطبقات كثيفة استعمارية كادت تودى بمعالمها القومية وشعورها الوطنى .

ومن الطريف أن يتعرف القارئ من خلال هؤلاء الأشخاص إلى المعضلات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والقومية التى خلقها الأستعمار بقصد أو دون قصد فى الجزائر ، فكل واحد من هؤلاء يحمل بين جنبيه المأساة الجزائرية فى شقيها المادى والإنسانى فالكوماندار — وهو لقبه الذى اكتسبه من الجندية فحل محل اسمه الأصلى الذى نسيه الناس — شخصية محببة تمثل التوثب والأمل بالخلاص ، والكوماندار كسيح فقد ساقيه فى الحرب العالمية الأولى وقد « لف ما تبقى من ساقيه المبتورتين إلى الركبتين بخرق كثيفة حتى صارتا تشبهان فى سماكتهما

عمودين رخاميين مبتورين » إن الكوماندار هذا هو صاحب الحلم الغريب الذى قصه على الطفل عمر قائلا : « كان القمر يجرف الزبد من أعالى الفجوات التى تفغر أفواهها بين الهضاب ؛ حتى خيل للناس أن الوقت ليس بليل ، فقد كان الهواء والأرض يتألقان حتى صار من الممكن تمييز كل باقة من باقات الحشيش ، وكل مدرة من مدر الأرض ، فكان الهواء والأرض والليل تتنفس ببطء ، وفجأة سمع وقع حوافر تضرب الأرض فيرن صداها فى القرية ، فانتصب الفلاحون مذعورين ، واقتربت الضجة أكثر فأكثر حتى غدت كأنها رعد ينتقل من أول القرية إلى أقصاها وهرب النوم من عيون الفلاحين ، ولحظ الذين جلسوا على أبواب أكواخهم تحت جدران المنصورة حصاناً أبيض لا سرج له ولا لجام ولا فارس يعلوه تهتز لبدته من شدة العدو . . . واختفى الحصان العجيب فى الظلام ، وبعد دقائق عاد العدو من جديد يطرق الليل ، وظهر الحصان عند أسوار المنصورة وبعد أن طاف حول المدينة القديمة اختفى من جديد ، وكانت الأبراج العربية التى قاومت الخراب تلقى بخيالاتها القوية فى الضياء الليلى ، ثم عاد الحصان يدور حول المدينة القديمة ، وعند مروره طأطأ الفلاحون رؤوسهم واعترى

قلوبهم الاضطراب والكآبة ولكنهم لم يرتجفوا بل تذكروا أولادهم ونساءهم قائلين : « أُعدُ يا حصان الشعب فى الليل ، فى ساعات الخير والنكد ، فى ضوء الشمس والقمر » .

ويتابع الكوماندار قوله : « ومنذ ذلك الحين يستيقظ هؤلاء الذين يحاولون الإفلات من مصيرهم أو الذين يترددون فى التفتيش عن أرضهم ، أو الذين يريدون أن يتحرروا أو يحرروا أرضهم إن جنون الحرية قد ارتفع إلى أدمغتهم ، من ذا الذي ينقذك أيتهـا الجزائر ، إن شعبك يمشى على الدروب سائلا عنك ! » .

وإذا نصتنا إلى ما يقول بقية أبطال الرواية أمثال حامد السراج الذي أوجد فى الأذهان فكرة الثورة والاتحاد فى وجه المغتصب ، وابن أيوب الذى صاح وهو قابض على حفنة من أرض الجزائر : « سيأتى يوم يحاسبنا فيه أولادنا حساباً عسيراً ، وسيهبون لصب اللعنات علينا ، إنى أرى من خلال المستقبل أحفادى يكيلون اللعنات لجدهم ، إنى أراهم يتقدمون نحوى صائحين : الله أكبر ، الله أكبر ! » .

وابن أيوب نفسه يخاطب أهل قريته قائلا : « ألسنا غرباء فى بلادنا ، والله يا أصدقائى إنى أكلمكم كما أفكر ، إنهم

يظنون أننا نحن الغرباء، والغرباء هم أهل البلاد ، لقد استولوا على كل شيء ويريدون أن يصبحوا أسياداً أيضاً ، وجعلوا من واجبهم الحقد علينا ، نعم إنهم يجيدون فن الزراعة، ولكن هذا لا ينفي كون هذه الأرض ملكاً لنا ، أفلا تعتقدون أننا قد حشرنا في سجن وأخذوا برقابنا حتى استحال علينا التنفس . . . وفي كل يوم ينتزعون قطعة من لحمنا فيبقى مكانها جرح عميق تسيل منه حياتنا ، هم يصرعوننا رويداً رويداً ، يا جيراني موتوا وأنتم تعملون ، ولا تتركوا أرضكم ، ولا تهجروا شبراً منها لأنكم إن هجرتموها هجرتكم وستبقون أنتم وأولادكم أشقياء مدى الحياة » .

إن هذه الأقوال وغيرها التي تشير إلى حنين الجزائريين إلى أرضهم المغتصبة وتمسكهم بها إنما تعبر عن معضلة كبرى نشأت بعد استيلاء الفرنسيين على الجزائر واستيطانهم تلك البلاد واللجوء إلى المصادرة الجبرية وتفكيك الملكية الفردية وتبديد الأوقاف وتشجيع الهجرة الاستعمارية ، ولكن هذه الأساليب وإن أدت إلى تجريد الجزائريين من مصدر قوتهم فقد خلفت في نفوسهم روح المقاومة يصفها أحد أبطال الرواية علي بن رباح الذي خاطب المعتدلين من قومه قائلا : « إن

الرجال عندنا صنعوا من معدن عال كريم ، كما أن القلب سليم من كل شائبة إن جميع أنواع البؤس والشقاء التى عرفناها لم تنل منا ، وليس هذا اليوم الذى تطأطئ فيه رؤوسنا ، إن كل رجل حولك هو مخزن بارود تكفيه شرارة لينفجر ! » .

إن هذه الأفكار التى سرت بين الفلاحين سريان النار فى الهشيم قد أوجدت أسساً للثورة والوعى الاجتماعى ، وبدأ الفلاحون يشكون فيما بينهم من ضآلة الأجور التى يدفعها المستعمرون الذين جمعوا ثروات البلاد فى أيديهم ، ثم أخذ التذمر فى التوسع حتى عم الريف « جو لا يوحى بالطمأنينة والهدوء » فوقع إضراب العمال الذين يعملون فى المزارع الفرنسية فجرد المستعمرون ومن ورائهم الحكومة قوى الأمن لمطاردة المضربين وإرهابهم والتنكيل بهم وفى الرواية مقاطع رائعة عن موقف المستعمرين من أهل البلاد ، وعن العقلية الاستعمارية وعلاقة المستعمر بالمستعمر القائمة على الازدراء والبغض والحقد .

كما أن فى الرواية لوحات أدبية فنية تثبت أصالة الكاتب ودقة ملاحظته وتجميده اللمحات الدقيقة الآبقة المعبرة عن نفسية أصحابها فى أسلوب مكثف رشيق يدل على امتلاكه ناصية اللغة الفرنسية .

فمن الصور المنتقاة قوله فى وصف نسوة يتشاجرن بشدة وضجيج : « كانت النسوة يتكلمن كلهن معاً ، كأنما نبت لكل واحدة فى وجهها فم إضافى ! » .

وقوله فى وصف الليل فى الريف : « لقد انتصب الليل فى كل ناحية ، فكان كيلا تاما لا شق فيه ، ولا يشبه الليالى التى نراها فى المدن ، فهو هنا يحتكر الكون فيبدو كشىء موحش جامد ، ليس فيه من معالم الحياة إلا صراخ الحيوانات أو زئير الأرض ، وكان مصباح الزيت الذى أشعله الفلاحون بمثابة سور هزيل من الضياء ، ولكنه ضوء جاء من عندهم ، فمس حواشى الليل ! »

وقوله فى وصف المزابل التى يتراكض إليها الفقراء ليجدوا ما يأكلون : « وكانت المجموعات البشرية قد جهزت حملات حقيقية إلى الأمكنة التى تفرغ فيها عربات البلديات محمولها وكنت ترى إلى جوانب هذه المستودعات التى تشكل هضاباً جماعات من البشر توهمك بوجود قرى خيالية تفتحت على أكوام القمامة كنباتات سامة » .

هذا هو محمد ديب فى روايته « الحريق » وهو بذلك لا يقل إبداعاً ونبوغاً عن أكبر الروائيين الأوربيين فى العصر

الحاضر بله الشرقيين . .

قلت : إن محمد ديب عزم على تصوير حياة الجزائر الاجتماعية فى سلسلة من الروايات تهدف كل واحدة منها إلى ناحية من حياة الشعب الجزائرى ، وها نحن أولاء نصل بعد « البيت الكبير » و « الحريق » إلى رواية « النساجة » التى صور بها فئة عمال النسيج الجزائريين . وقد ركز روايته فى ورشة يعمل بها عدد من العمال وجعل محور الرواية كما فى روايته السابقتين الولد عمر الذى تتفتح شخصيته على مظاهر الحياة القاسية التى يحياها بنو قومه ، ومعه أمه « عانية » تلك الأرملة المسكينة التى قضت حياتها فى فاقة وجهد وبلاء وصبر على الفقر والحرمان لتعيل أولادها ، وهى فى كل ذلك راضية ، مستسلمة لمشيئة الأقدار ، تستمد من هذا التسليم والخضوع قوة على مغالبة الشقاء ، فهى مثال للأم الشجاعة الفقيرة المخلصة لدور الأمومة التى يكثر أمثالها فى الطبقات الشعبية وهى ذاتها التى أنطقها محمد ديب بمثل هذه العبارة : « لقد ولدنا على هذه الأرض اللعينة كما تولد المخازى ، وتغذينا الحثالة ، وهجرنا كما يهجر المنبوذون ، حتى خبزنا فهو أسود سواد الليل الذى يحيط بنا ! » .

تجرى حوادث الرواية سنة ١٩٤٤ إبان الحرب الأخيرة ، ولم تكن إفريقيا الشمالية بمنجى عن شرور هذه الحرب وويلاتها ، فقد ازدادت الحالة الاقتصادية والمادية سوءاً على سوء ، وعم الفقر والقحط ، ووقفت الأحوال ، واشتدت الوطأة على الكادحين وظهر الاستعمار فى صورته السوداء الرهيبة .

ومن الطبيعى أن تكون مهنة الحياكة فى بلاد مستعمرة كالجزائر كغيرها من المهن فى مرحلتها البدائية أولا ، وأن يكون أربابها فى عصر الآلة والمعامل طبقة عمالية فقيرة محرومة تتجسد فيها معانى بؤس الجزائريين وعوزهم . ومن الطبيعى أيضاً أن تكون هذه المهنة مورد رزق لكثير من الأسر ، يتعاطى الرجال الناحية الفنية العملية منها ويعمل النساء فى ندف الصوف وغزله ، يعملن كعانية أم الولد عمر حين « كانت تجلب جزات من الصوف الملىء بالدهن ، والمثقل بالتراب والمصالة والبعر ، فتنظفها وتحضرها ثم تحمل بعد أيام بقدر ما تسمح لها قوتها رطلا أو رطلين من هذا الزغب الحليبى إلى سوق الغزل » .

وقد حلا لأحد الكتاب الفرنسيين أن يقارن بين حالة

النساجين فى الجزائر وبين نظرائهم فى فرنسا فوجد أن أحوال هذه المهنة سنة ١٩٤٤ تشبه تماماً ما كانت عليه فى فرنسا منذ مائة عام ، فظروف العمل السيئة واحدة ، وبؤس العمال واستغلالهم دون شفقة أو رادع من قبل أرباب العمل القساة الجشعين واحدة ، وإهمال الدولة لحقوقهم ورعايتهم واحد ، بل قد استطاع أن يجمع أقوالا وأوصافاً لكتاب فرنسيين أحرار يصفون فيها هؤلاء العمال منذ قرن ونيف تطابق ما قاله محمد ديب فى وصف مواطنيه ، ولعل أروع ما روى قول الشاعر هوغو عن لسان هؤلاء الكادحين :

منذ طلوع الفجر حتى المساء
ونحن نقوم دوماً فى السجن ذاته
بنفس الحركة
جالسين القرفصاء تحت أسنان آلة كئيبة
مستسلمين لعمل مضن مرهق
يمسك العمر بين براثنه
عمل ينتج الثروة يخلقها البؤس
أو قول دوبون فى أنشودة العمال .

نحن فى ثياب رثة نعيش فى الحذر
وتحت السقائف وفى الخرائب
نعيش مع البوم ومع اللصوص
أصدقاء الظلام .

نحن فى أقبية مدينة « تلمسان » حيث ورشة المعلم ماهى بو عنان ، يعمل النساجون فى مكان رطب يهبط إليه المرء فى بضع درجات ، يتسرب إليه النور من كوة صغيرة فى أعلى الحائط حتى بات القبو فى شبه ظلام ، وبات من يعمل فيه « كالبوم عششت فى قبو نصف مظلم » يعملون منذ طلوع الفجر حتى المغيب ، عملا مضنياً ، متواصلا ، يتقاضون عليه أجراً زهيداً يكاد لا يكفى ثمن الخبز « يمشون حفاة ، فى قمصان وسراويل مهرئة ملوثة بالأصبغة ، يستحرون فى النسج بشكل ضار مغلق » .

فى هذا المكان الذى ينطفئ فيه العمر والبصر تمر الأيام ، وتنساب الساعات بين الكلل والملل من حياة لا غاية لها ولا طائل تحتها ، ولم يكن الولد عمر يعلم أن مهنة النسيج ستكون حلقة من حلقات بؤسه إلا يوم صدم لأول مرة حين رق صاحب الورشة لتضرعات أمه وقبل أن يشغله عنده فى القبو فقد « هبط

عمر درجات السلم الأخيرة حيث وقف ، فوجد نفسه فى وسط القبو ، فنشبت إلى أنفه رائحة رطوبة شبيهة بأنفاس بهيمة فلصقت بوجهه ، فكاد الولد يختنق ، وكان القبو معتما ، وفى الحال أسف عمر على عهد الأزقة حتى صار يفضل التسكع تحت المطر المنهمر على أن يختنق فى هذا المكان ، فتردد ، وتملكه ميل جنونى للصعود على السلم والهرب . ولما اعتادت عيناه الرؤية فى القبو المعتم وجد أن العمال ينظرون إليه شزراً ، تبدو عليهم جميعاً ملامح الإعياء والاصفرار فصاح عمر : إن المعلم أرسلنى لأعمل هنا حلالا للغزل » .

فى هذا القبو كانت تجرى حياة هؤلاء العمال ، حياة رتيبة ، كئيبة ، يتخللها بين وقت وآخر ومضات من المرح والانطلاق وسرعان ما يعود جوّ القبو بعدها إلى سابق حالته من الكآبة والاستسلام إذ ليس من السهل كما يقول محمد ديب « أن يعتاد المرء على الضحك » .

إن من يقرأ الرواية لا يسعه ــ مهما أوتى من التجلد والقدرة على إسكات الضمير الإنسانى ــ إلا أن يشفق على هؤلاء المساكين الذين سدت فى وجوههم منافذ الأمل ، وضاقت سبل العيش ، وتوزعهم اليأس القاتل من جهة والتمرد الخافت الحائر

من جهة أخرى . فإن العم صقالى يقول لرفيقه بلهجة الحزين : ما أكثر ما نتألم فى هذه الدنيا ! فيجيبه رفيقه حمدوش : ماذا يفيدنا أن نؤدى عملنا بأمانة ، وماذا جلب لنا هذا العمل . . . الريح . . . أما رفيقهما عباس فلم يكن أقل يأساً فهو بعد أن استعرض حياته قال : « من الجائز أننا عرفنا بضع ثوان من السعادة ، ولكن كم إلى جانب ذلك من أيام سوداء ، لقد حرمنا كل شيء ، ونلنا نصيبنا من اليأس وضربات القدر ، فقد لقينا لقاء دقائق من الفرح محيطاً من المرارة . . . إن نفوسنا شبيهة بهذا القبو يعيش الأحرار على سطحه وفى باطنه الأرقاء ، وليس كسب قطعة نقود إضافية هى التى تهم العبد الرق ولا المطالبة بكسرة خبز . . . ! »

ولم يكن هؤلاء العمال كلهم واعين لحالتهم ، شاعرين بانحدارهم إلى قرارة العبودية الاجتماعية ، بل كان منهم من يعتقد أنهم خلقوا هكذا ، وليس من الممكن أن تكون إلى جانب حياتهم أفضل وأحسن ، فهم يعيشون فى قدرية مريحة جعلت بعضهم يقول : « إن الله قد ولى وجهه عنا ، وكل شيء تردى ، فإن الفقير غدا أفقر من ذى قبل والخبز أغلى ، تلك هى حالنا . . . إننا سننال نصيبنا فى العالم الثانى ، يجدر بنا

ألا ننتظر من هذه الدنيا شيئاً » .

على أن هناك فريقاً آخر أكثر وعياً وأصدق حسا ، تضطرم فى نفوسهم ثورة نفسية عارمة ، عنيفة يستشفون من خلالها أحداثاً هائلة تعيد إليهم إنسانيتهم وحقوقهم المغتصبة ، ألم يقل أحدهم : « لقد هبطنا إلى الحضيض ، ولن نستطيع العودة إلى إنسانيتنا بالطرق العادية ، وسنجبر على قلب العالم بل على إرهابه . . . إن شعبنا قد أهين وسيخرج منه شىء هائل . » وتتجلى هذه الثورة فى شخصية المناضل عكاشة كما تجلت فى الروايتين السابقتين فى حامد سراج ، ويرتفع عكاشة هذا فى شكوه عن مستوى السخط النفسى والتمرد الفردى والتقريع المرير لبنى قومه إلى مستوى الثورة القومية الشاملة ، فهو كزميله حمزة يتفوه بأقوال معبرة عن الحالة الراهنة وعن الأحاسيس التى تجيش فى الصدور بقرب الخلاص فهو بعد أن كان يقول : « إننا لا نعرف من نحن ، ولعلنا المخلوقات الوحيدة فى الدنيا التى لا تعرف من هى ولا أين تسير ، وإذا سألت أية بهيمة فهى تستطيع إفهامك ما تريد ، ولكن نحن . . . إننا نمشى حفاة ، تلوح علينا علائم الاستياء ، وتكاد أسمالنا لا تخفى شقاءنا ، وليس فى رؤوسنا سوى الفتات وفى معدنا الدرن » إذ به

يقول بعد مدة : « أيتها الجزائر ! أين رجالك ، من ذا الذى يوقظهم من نومهم ، إنه اليأس الشعبى الكبير ، إنه اليأس الشعبى الكبير ! »

وتظل هذه الأفكار فى ارتفاع تصاعدى حتى تتبلور فى فكرة إصلاحية شعبية تخرج عن نطاق الأفراد والفئات والطبقات إلى نطاق قومى واسع يشمل الجزائر بأسرها ، لنستمع إلى العامل حمزة يخاطب رفاقه : « إن السياسة شىء معقد يعالجها كل حسب طريقته ، ويقول بعضهم إنه يجب إعطاء جميع الأراضى للفلاحين ، ويرى آخرون أن يعطى الفلاحون كل شىء وسنقسم بين أبناء الشعب بالعدل . وهكذا ترى أن السياسة تهتم برفاهية الشعب » فيجيبه عكاشة المناضل « إن الشعب هو ملكوت السموات ، وهو روح الدنيا النقية ، ولم يعلم أحد الشعب ، ومع ذلك فهو يحمل الحقيقة فيه ، تلك الحقيقة التى يبذرها بسخاء » .

ومن الغريب أن القارئ مع علمه بأن الحرب الدائرة اليوم فى الجزائر هى نتيجة حتمية للحالة التى كان يعانيها الجزائريون ، فإنه لا يلحظ فى رواية « النساجة » أية إشارة إلى تلك الحرب ، كما أنه لا يلحظ عند المؤلف أية نزعة صريحة لإبداء فكرة

أو مذهب بل ظل كغيره من كتاب الجزائر ــ ضمن العمل الفنى ــ ينقل إلينا عن طريقه واقع أمته وقضايا حياتها فى إطارها الإنسانى دون اقتراح الحلول واستباق الحوادث ، وأعتقد أن التعبير الجميل يفعل فى النفوس ما لا يفعله سوق الحجج وبسط البراهين ، وتعمد الإقناع .

إن محمد ديب وصّاف ماهر ، ومصور مفن ، يجيد التصوير الواقعى ، ففى رواياته صور قوية مكثفة تنطبع فى فى مخيلة القارئ وتطفو على ما عداها من الحوادث والأشياء ، ولعل من أروع ما تضمنته رواية « النساجة » منظر مواكب المتسولين التى أتت من الجنوب إلى مدينة تلمسان بعد أن جردتهم السلطات والقانون الاستعمارى من أراضيهم فقد أفاق التلمسانيون يوماً فإذا بهم يصطدمون بهذه « الأشكال التى تشبه الأطياف الغريبة ، كانت جماهير المتسولين تزحف ببطء رجالا ونساء وشيوخاً وأطفالا فيحتلون المدينة ، وكان أكثرهم سليمى البنية ، ولكنهم من البؤس والإعياء إلى حد أنهم لم يعودوا بالنظرات الشزراء التى تضمرها لهم عيون السكان ، وكانوا يبدون إزاء المعاملة التى استقبلوا بها وقساوه رجال الأمن اللامبالاة ، وكأن قوة نجهل مصدرها تدفعهم إلى الأمام ، وهكذا انتشروا

بشكل غريب مجرد عن الحياة ، فيه تردد وفيه سأم . . . وكان الناس يتساءلون عما إذا لم يكونوا قد تسللوا منذ أمد قريب حتى عجت بهم مسالك البلد الرئيسية وشوارعها وساحاتها ، لا شك ! فى أنهم تسربوا إلى المدينة بفضل الأيام الماطرة السابقة .

ولم يعرف أحد الأسباب التى جذبتهم إلى المدينة ، هل جاءوا لطلب عيش افتراضى ؟ وعلى تخمين أنهم واجدوه ، فإنهم لم يتركوا البلد عائدين إلى أجحارهم التى لفظتهم فقد توطدوا فى قلب المدينة ، ولذا لم يفهم الناس شيئاً هل يسيرون فيها بدافع التطفل فى الظاهر ، لا ، فهم يأتون ثم يحلون حيث يطيب لهم المقام ، ثم ينظرون إلى الأشياء بعيون مطفأة . . . »

« على أن فى هؤلاء المتسولين وداعة وبعد عن الأذى ، ومن الإنصاف القول إنهم لم يقترفوا إثماً ، فهم ينظرون إلى المارة كبيرهم وصغيرهم بشىء من الزهد ، إنهم ينتظرون ، ماذا ينتظرون ؟ لا نعلم ، ثم يعودون إلى تسكعهم ، إنهم ينامون حيث يفاجئهم الظلام ، حتى إذا قص الهواء الجو شد كل واحد منهم أطماره على جسمه ووضع رأسه على حجر أو درجة نام » .

« كانوا يشاهدون فى كل مكان ، فى الأحياء السفلى من

المدينة ، وتحت الأفاريز ، وعلى مقربة من الأسوار ، وأمام الحمامات وعلى الأدراج ، وفى أسفل الجدران التركية على طريق « المشوار » وفى مداخل الفنادق ، ففى كل الأسواق تتنقل أشكالهم المهلهلة القاتمة القذرة ، يجررون أنفسهم فى كل مكان ، يحمل بعضهم بعضاً على الظهور ، حتى إذا عجزوا عن السير ارتموا على الأرض لاهثين من التعب ثم يصطفون على الأرصفة ، ولم تكن ما تضمنته واجهات المخازن من ظرف فى نظرهم سوى توافه لا يؤبه لها ، وماذا يهمهم فإنهم قد ضربوا جذورهم وانطفأوا كما ينطفئ المشعل الخامد » .

وكان يخيل للناس بين وقت وآخر أنهم يفتشون عن شيء أضاعوه ، وكانت حركاتهم تشبه الزحف الخفى ، ثم لا يلبثون أن يعودوا إلى سكينتهم الأولى ، هم لا يمدون أيديهم للاستجداء ، وكانوا فى الأصح متكدسين فوق بعضهم ، يجلسون القرفصاء فى أماكنهم التى اختاروها ، هذا إذا لم يزحزحهم أهل المدينة عنها ، يلحظون منها حركات المارة . . حتى إذا حاول أحد أن يتصدق عليهم وجب أن ينحنى ليدس قطعة النقود فى باطن الكف » .

« لم يعد هناك أى حاجز يحول دون زحفهم المتلاحق الذى أوصل جحافلهم إلى الأحياء النظيفة والأسواق التجارية وأقسام

المدينة الشريفة « حيث بيوت الأوربين التى تعكس أنوارها فى الليل الحياة السعيدة الهادئة » يهيمون دون هدف ، ودون أن يأبهوا بالمطر المنهمر الذى يغرقهم كالمرق ، كانوا يهيمون وأحداقهم ميتة ، وأيديهم تستجدى بحركة عفوية ، ينفرون من مخابئهم كامدى الألوان ، ثم يعودون بعد لحظات من حيث أتوا كأن العدم الرطب قد قاءهم » .

« وكثر عدد الأموات بينهم ، وكم مسكين لفظ نفسه الأخير دون دمدمة . . . وكان يفاجأ بعضهم وهو يزحف دون وعى نحو مخبأ مجهول ، ثم يغيبون عن الأنظار . . . إن هؤلاء الناس يودعون الدنيا باحتشام مثالى كأنهم بذلك يعتذرون عن موتهم » .

إن هؤلاء المساكين الذين أثاروا اشمئزاز الأوربيين وتقززهم قد وجدوا عند مواطنيهم بعد أن زال الدهش والاستغراب من غزوهم المفاجئ كل عطف ورعاية ، وعندها تجلى التماسك الاجتماعى والشعور الأخوى الذى يوحد القلوب والمشاعر ويربط بين أهل الوطن الواحد برباط الكره للغريب المحتل أصل هذه الشرور والبلايا ، فقد كنت تسمع عندما تجمع الناس حول رجال الأمن يريدون إجلاء المتسولين عن البلد ، فكأن وجودهم

قد ذكر مواطنيهم بما هم فيه من بؤس وبلاء : « إن هؤلاء المخلوقات ليسوا بحشرات ، وإنما الحشرات هم الذين غزوا هذه البلاد فجعلوا إخواننا هكذا . » وقال آخر : « صدقونى يا إخوتى ! إن شقاءنا ليس ابن يومه ، فهو آت من بعيد ، ولم القلق والذعر !؟ » حتى إن عانية أم الولد عمر كان لها نصيب فى التعبير عن شعورها فهى القائلة عند ما هب أهل البلد لفتح أبواب دورهم لمساعدة إخوانهم المشردين : « هم إخواننا بالدم ، وضيوف أرسلهم الله إلينا ، فأهلا بهم وسهلا ، نحن نضيفهم ولو لم يكن عندنا سوى الماء ، فيعلمون بذلك أننا محرومون مثلهم ، إن الرحمة لا تزال موجودة فى هذه الدنيا ، ولن يقال إننا طردنا أمثالنا لأننا نملك مأوى وهم لا يملكونه » .

إن هذا التساند العاطفى هو نقطة تحول فى حياة الشعب الجزائرى ، بل التباشير التى تسبق الصبح المضىء ، وهذه كلها دلائل على الوعى واهتزاز القلوب بالأمل ، أمل الخلاص من العبودية والعودة إلى اعتلاء السلم الذى انحدر منه الجزائريون إلى هوة اليأس والاستكانة والهوان ، فبعد أن قال العامل عكاشة : « إن الحياة هنا كالرمال تملأ بها الأيدى ولا يبقى منها شىء » وبعد أن يقول عباس : « إن حياتنا من الضيق والحرج بحيث

تجن بها بقة ، إن حياتنا لسيئة سيئة جداً » أصبحنا نسمع حمدوش العامل يقول بلهجة العزم والجد : « كفانا عيشاً كما عشنا ، ولا قيمة بعد اليوم إلا للعمل » .

تلك هى الطلائع الشعورية التى مهدت للثورة التى يشب أوارها على أرض الجزائر ، ولاشك فى أن شعب الجزائر التى قاسى من ألوان الحرمان والذل ، وتحمل ما لم يتحمله شعب على وجه الأرض من الاضطهاد والتنكيل ، لن ترهبه هذه الحرب الإفنائية بويلاتها وتضحياتها وسيظل مثالا للتضحية والجهاد ورمزاً للقدرة الإنسانية الجبارة التى تفوق كل تقدير ومقياس .

ولا أدل على هذه الروح المتوثبة من ذلك الحوار الذى جرى بين الولد عمر والعامل الثائر حمدوش والذى أودع فيه محمد ديب فلسفة الروح الجزائرية التى تقوم عليها دعائم الثورة :

— ليس المراد أن تحتقر الناس، فهم لا يريدون أن تشفق عليهم ، أنت تريد لهم الخير فى حين أنهم متعطشون للعدالة .

— ياله من استعداد سقيم ، هل تتصور سوء تأثير ذلك

عليهم ، إنه لا يرفع عن كواهلهم ذرة من البؤس ، إن الشفقة لعمل سهل . .

ـ أنت تكره الناس !

ـ أريد أن يتعلموا ألا يطلبوا سوى سعادة واحدة . . . الحرية .

ـ هناك سعادة العيش . . . العيش ولا شيء سواه .

ـ إنك تهذى !

ـ مع أن الناس جميعاً يبغون هذه السعادة .

ـ ليس فى هذا روح ، إن ما يلزمنا أن نتعلم من جديد كيف تشعر بأننا أحرار ، ثم إن التعطش للعيش ينبت بعدها من جديد .

ـ يجب أن نفتح أعيننا ونرى .

ـ إن العالم قاس . . . إن جميع الذين ينزعون إلى أفكار سامية سمحة سيسحقون ، فلا عجب إذا رأينا الإعياء يستولى علينا قبل بدء المعركة .

ـ لا تنس إن إخواننا رزقوا نعمة التكيف مع الحالات كلها ، وأن شقاءهم لا يؤثر فيهم أبداً .

ـ لست أدرى ، إنهم فى الواقع يخجلون ، فهم يكتمون

شعورهم ويخفون آلامهم .

— كلا ! هذا غير صحيح ، إن قلوبهم ميتة .

— يجب أن توقظ هذه القلوب !

— إن ما يلزمنا هو أن نتعلم الحقد ، وأن نكون قساة القلوب .

— هناك أناس يساعدون أمثالهم على أن يصبحوا أحسن حالا .

— ستكون واحداً منهم .

إن محمد ديب روائي موهوب ، وهو على عادته يجيد التحليل والكشف عن خفايا النفس الإنسانية كما أنه يجيد تصوير الشخصيات والأوساط الاجتماعية والمناظر المادية والعوارض الجوية ، وأسلوبه فى ذلك لا يقل نصاعة وحيوية عن أبطال رواياته مما يجعل محمد ديب فى طليعة كتاب الجزائر المعاصرين .

لنذكر بعض هذه الصور الموفقة ؛ قال يصف عانية أم الولد عمر وهى نائمة : « نامت وقد أسندت ظهرها إلى الحائط ، لقد عقصت منديلها ورفعته إلى قمة رأسها كصرة حمام ، وهبط فكاها وامتدت شفتاها فى حركة نفخ واسعة » .

قال يصف الريح فى يوم عاصف : « كانت الريح تهب من الغرب تارة ، ومن الشرق أخرى ، تقفز قفزات كبيرة محاولة تكسير المدينة ، ولكنها كانت تصطدم فى ثورتها العمياء

العنيدة بجميع المنافذ فتجدها مقفلة منيعة » .

وقوله : « كان زئير العاصفة يتلاشى فى المجال الليلى » .

وقوله : « كان الضباب قد احتضن المدينة طوال الليل ، ولما أشرق الصباح سطعت شمس فتية فى سماء كانون الثانى كأنها تلحس الأسواق » ومن تشبيهاته فى وصف متسول : « وكان بعضهم وقد تجمع على نفسه كالقنفذة ينام بلا انقطاع » .

وقوله فى وصف مطر غزير : « وكان المطر المتواصل يهز شعوره النهرية » .

وقوله فى وصف العامل شول : « وكان شول الرجل الألط [1] ، النحيل ، ذو الوجه الترابى والشعر المقصوص يبدو كأنه مقشة قديمة نتف قشها » .

وقوله فى وصف عمر فى ورشة الغزل : « كان يجر الخيوط كما لو كان يسحب أمعاء خروف مبعوج » .

وقوله فى وصف ولد ميت مسجى فى كفنه : « لقد تبين لعمر أن الكفن طويل جدا ، كأن الموت قد مط العامل الصغير وجعل منه الرجل الذى لن يكونه » .

إن رواية محمد ديب التى تصور ولادة روح الشعب الجزائرى لتغنى عن مئات الكتب والأبحاث التى كتبت عن الجزائر وقضية الجزائر .

---

(١) من سقطت أسنانه .

## ٣ ـ مولود فرعون

لننتقل الآن إلى كاتب آخر يدعى مولود فرعون يقص علينا حياته فى جبال القبائل بأسلوب واقعى ، جذاب مؤثر ، وقصته فى الحقيقة هى قصة قومه الفقراء الذين يعيشون فى فقر ويموتون فى فقر ، فلا يثورون ولا يتذمرون كأن هذا مصير طبيعى محتوم لكل إنسان على وجه الأرض ، ولذا توج مولود فرعون غلاف روايته « ابن الفقير » بعبارة للكاتب الروسى تشيكوف تعكس روح القصة وترسم الإطار الذى تدور فيه حوادثها « نحن نعمل لخدمة سوانا ، حتى سن الشيخوخة والعجز ، وعندما يدنو أجلنا نموت دون دمدمة وتقول فى العالم الثانى : إننا ذقنا الآلام ، وبكينا وعشنا سنين طويلة من المرارة وأن الله سيرأف بنا » .

وألف مولود فرعون رواية « الأرض والدماء » وهى التى فازت بجائزة الأدب الشعبى فى فرنسا سنة ١٩٥٣ ، انتزع بها الجائزة من خمسين كاتباً فرنسيا منافساً إياهم فى ميدانهم وفى لغتهم ، وألف أيضاً كتاباً عنوانه « أيام القبائل » وهو

مجموعة أبحاث عالج بها موضوعات اجتماعية فى أوساط القبائل فى الجزائر.

ولد مولود فرعون فى قرية تابعة لمديرية « فورناسيونال » فى منطقة القبائل العليا .

ويظهر أن مولود هذا كان فى بدء حياته راعياً أو على استعداد ليكونه ، ولكن الحظ حالفه فاستطاع أن يتعلم ويدرس ويفوز بالشهادة فيعين معلماً ابتدائياً فى قريته مما جعله يرتفع قليـــلا عن مستوى بيئته وأن ينعم وذويه بشىء من اليسر المادى بعد الحرمان والجوع . فقصته إذن قصة هذا النضال الموفق ، بل هذا الوصول إلى هدف تنتهى عنده مطامع صاحبه ، بل قصة شخصية رجل فى أدوار تكونها ونمائها وارتقائها فى بيئة فقيرة منعزلة وشغل صاحبها بتحصيل القوت الضرورى عما عداه من أمور الدنيا .

وقد نالت رواية « ابن الفقير » شهرة بعيدة فى الجزائر أولا ثم تعدتها إلى أفريقيا الشمالية كلها حتى غدت من الكتب الأدبية الكلاسيكية ، يدرسها الطلاب على أنها من روائع الأدب المغربى المكتوب بلغة فرنسية .

تجرى حوادث الرواية فى قرية نائية من قرى القبائل الجبلية ، وهى قرية أشبه بغيرها من قرى الريف فى الشرق العربى فى فقرها وخصاصتها وبدائيتها فالبيوت حقيرة ، والأزقة ضيقة ، معوجة ، يملأها الغبار صيفاً ، والوحل شتاء بنيت البيوت من اللبن وسقفت بالخشب والقصب والشوك ، وطليت الجدران بالكلس ، وإذا نظر القادم إلى القرية من بعيد تراءت له بيوتها المتراكبة كفقرات « عمود فقرى لحيوان هائل منقرض من حيوانات ما قبل التاريخ » وما سر هذا التلاحق والتراكب إلا شعور الفلاح من قديم الأزمنة بالوحشة والانعزال وما يصحبهما من خوف تجاه للطبيعة الجامحة ، والمناخ القاسى ، وحاجات الحياة ، على أن فى القرية بيوتاً جديدة تجلب النظر ، بناها أصحابها من المال الذى جمعوه فى فرنسا ، فكانت هذه البيوت « بواجهاتها الصارخة وقرميدها الأحمر وسط البلى العام تنبئ عن ترف فى غير محله » .

إن حياة القرية كحياة كل فرد من أفرادها عالم مستقل صاخب فى أفراحه وأحزانه ومطامعه وتناقضاته وآفاته النفسانية ، إلا أنه عالم محدود ، غريزى ، بدائى يدور كله فى فلك الرغيف وبلغة العيش ، ويظهر أنه كلما كانت البيئة فقيرة ، كان

النزاع بين الأفراد أشد ، والصراع من أجل البقاء أقوى ، ومع أن الطابع العام الطبيعى للقرية هو المساواة وانعدام الفوارق ، فقد كان هناك فقراء وأغنياء ، فقراء لا يملكون إلا جهد الأيدى ومتانة السواعد ، وأغنياء لم تتجاوز ثروة أحدهم بضع شجرات تين وزيتون وهكتاراً من الأرض الصالحة للزراعة وأحياناً ينبوع ماء فى الحقل ، ولكن هذا كاف لكى يثير عند الفقراء الإعجاب المقرون بالحسد ، على أننا إذا أمعنا النظر وجدنا أن الفلاحة تجرى فى أرض جبلية كلها انحدارات حتى إذا جمعت المساحة وأحصيت الأطراف والشعاب لم تتجاوز المئة متر مربع ، يحرثها فدان لا يكبر الثور فيه الخروف الكبير ومع ذلك فإن التقاليد تقضى بأن يكون الأعور بين العميان ملكاً فليتكلم هذا الملاك الغنى فى الاجتماعات بصوت عال وليكن السيد المطلق فى بيته ، وليحتفظ بالسلطان والإعجاب اللذين هما المظهر المرئى للثروة ، إذ لولا هذا المظهر المعنوى لما امتاز ممن لا يملك شيئاً ، إذ أنه يعمل أكثر من الفقير ، يعمل مع عماله ويأكل معهم ويلبس مثلهم ويشاطرهم أتعابهم وإن كان لا يشاطرهم همومهم وأحزانهم .

فى هذه البيئة الفقيرة حيث جرد أهل البلاد من أراضيهم الخصبة وحشروا فى بقاع ضيقة يجهد أهلها لاستنباط الخيرات

من الأرض الشحيحة ، يصبح الفقر مصدراً للآفات الاجتماعية ويصبح معه القوت اليومى قضية أساسية يتركز عليها سلوك الأفراد ونمط حياتهم وتفكيرهم وتفاعلهم مع محيطهم ،وهكذا نجد أن أهل القرية التى ولد فيها المؤلف يتآخون ويتعاونون ويتنابذون ويتحاسدون ويجوعون ويصبرون فى إطار من الاستسلام لمشيئة الأقدار والرضى بالقليل والرزق المقسوم . والمهم فى الأمر أن مولود فرعون أو فورولو كما سمى نفسه شهد النور فى قريته الجبلية وشهدت هذه مراحل حياته منذ كان طفلا يحبو إلى أن أصبح معلماً ، وتطل علينا من خلال روايته شخصيات تمثل كل واحدة منها دورها الحقيقى دون تكلف أو تصعيد بل فى واقعية قريبة جداً من الحياة ، وقد أبدى مولود فرعون فى روايته هذه موهبة نادرة فى فهم النفوس وإحساساً نفاذاً قادراً على الاندماج والتقمص فى أبطاله وتحريكهم من الداخل والخارج وبث معانى الحياة فيهم . ومن هؤلاء الأشخاص من له دور أساسى تتجمع فيه العناصر الهامة ومنهم من هو ثانوى يظهر بين وقت وآخر ليكمل صورة أو يمثل دوراً أو يدعم فكرة أو يبدى وجهة نظر ، وحياة الكاتب كحياة كل قروى خالية من الضجيج فى العالم الخارجى إلا أنها غنية من الناحية

النفسية ، كما أن طفولته وإن لم تكن سعيدة فهى ليست تعيسة على وجه الإجمال ، فقد كان هناك فى أسرته من يهيئ له السعادة وأجواء الحنان ويدفع عنه عوادى الزمان ، منهم أبوه رمضان وأمه فطمة وعمتاه خالتى ونانا ، أما أبوه فقد عمل وضحى من أجل أسرته ولم يدخر وسعاً على فقره من إدخاله المدرسة والقيام بنفقاته وهو كما وصفه « أسمر اللون ، قوى الجسم فيه صفات الفلاح القبيلى كمتانة البنيان وصلابة الأعصاب ، له جبهة مربعة وأنف أفطس صغير وشفتان رقيقتان ، ووجنتان عريضتان فيه عادة إغماض عينه اليسرى عندما ينظر إلى الناس ، وقد حاولت أمه أن تخلصه فى صغره من هذه العادة القبيحة فلم تفلح كما حاولت أن يقلع عن عادة المشى بتثاقل كالدب لأن هذه المشية تعطيه فى كل خطوة يخطوها شكل من يستعد لرفع حمل ثقيل أو ملاقاة خصم معتد » . أما أمه فطمة فهى قصيرة القامة ، صفراء الوجه ، هزيلة ذات وجه طويل ووجنتين ناتئتين ، نظراتها وديعة ملأى بالكآبة المحببة ، ولا تجيد من أنواع سوى طهى « الكوسكوس » .

وهناك عمتاه اللتان تحبانه وتعطفان عليه كثيراً ، تقطنان فى بيت صغير أشبه « بعش مدور مظلم » ولكن الداخل إليه

يشعر بحرارة الألفة الهادئة حتى لكأن الجدران تمسك فى كل حركة من حركاتك ، فيخيل إليك أنها تداعبك ، وأن الأثاث يبتسم لك فى الظل . »

وقد لعبت عمتاه دوراً كبيراً فى حياته ، حتى استغرقتا جزءاً كبيراً من روايته وسط الحوادث الكثيرة التى قصها علينا ، فهما مدرسته الأولى التى تكونت فيها نظرته للدنيا وركبت فيها أجزاء شخصيته ، وكانت عمته الكبرى تحكى له الحكايات فى ليالى الصيف والشتاء ، ومن تلك الحكايات تعرف على حد قوله « على أخلاق الناس وأحوال الصالح والطالح والقوى والضعيف والماكر والساذج ، وكانت عمتى تستطيع إبكائى وإضحاكى . . لأنها كانت تتأثر بالقصة التى ترويها ، وإذا سمعتها خيل إليك أنها تؤمن بكل ما تقول ، فهى تضحك وتبكى كابن أخيها ، وإذا كانت عقدة الحكاية محزنة جدا نمنا معاً تحت تأثير القلق يضم كل واحد منا الآخر من شدة الفزع وإلى أن يقول : « . . . وكانت الحكاية تسيل من فم عمتى فأشربها بنهم » .

وقد أجاد مولود فرعون تصوير الجو الأسرى ببراعة فائقة فأطلعنا بأسلوب سهل طبيعى على لوحات من حياة القوم ،

وإذا كانت الحياة طريقاً طويلة مزروعة بالحوادث والآفات والمصائب فإن من هذه الحوادث ما يعفّى عليه النسيان والعدم ، ومنها ما يظل حيا يعيش معنا ويكيف حياتينا الشعورية واللاشعورية ، وإذا كان ما قاله أحد الكتاب من أن « أفضل أجزاء العبقرية هو ما كونته الذكريات » فإن رواية مولود فرعون غنية بالذكريات الهادئة والعنيفة على السواء ، وكان من حسن حظ الكاتب أن هذه الذكريات محزنة وكئيبة لا لأن ذكر الفواجع والكوارث أوقع فى النفس البشرية بل لأن الفواجع والأحزان تأتلف وهذه البيئة الفقيرة وهذا الشعب المعذب ، فهى أدعى للبراعة الوصفية والكمال الفنى ، فقد مات أبوه بعد رجوعه من فرنسا من الإعياء والتعب ومن جراء جرح أصيب به فى إحدى المعامل ترك فيه أثراً عميقاً يمتد من الصدر حتى أسفل السرة » وماتت عمته الأولى على إثر ولادة ، وماتت الثانية بعد أن أصيبت بالجنون حزناً على أختها وهنا يتجلى فن مولود فرعون الوصفى قال يصف نهاية عمته الأولى : « لقد ماتت بين أذرع أخواتها بعد ليلة قضتها فى عذاب ، تاركة حنيناً بارداً مسكيناً صحبها إلى القبر ، لقد ظلت جثة الصغير معلقة بأمه منذ أول الليل ، وأخذت عزيمة « نانا » تخور شيئاً فشيئاً فيغمى عليها

فى كل لحظة حتى لم تعد سوى حطام بشرى ، وكان يسمع لأحشائها قضقضة فيسيل موج الدم فيسمع له صوت كقرقرة الماء يندفع من فم الجرة ، وكان بالإمكان نزع هذه الثمرة الخبيثة العالقة بأحشائها ، ولكن الله لم يرأف بعمتى فإن عمل الحياة يجب أن ينتهى بالموت ، فدام احتضارها حتى الصباح ولفظت أنفاسها بهدوء مع آخر نجمة فى السماء » .

ويسترسل مولود فرعون فى وصف المشهد ببراعة لا يجيدها إلا من عرف المصائب والآلام فألفهما : « ولا أزال أرى عمتى « نانا » وهى مسجاة على بساط عرسها ، مغطاة بقماش أبيض ، ووضع لها منديل أصفر يسند ذقنها ويحيط بوجهها ، وكانت عيناها مغمضتين وأنفها مكزوزاً ووجهها شاحباً كلون المنديل ، ويخيل للناظر أنها نائمة ، ولكن للنوم أشكالا ، فهناك نوم التعب ، ونوم العافية ، ونوم المريض المضنى المعنى ، والموت شيء آخر . . . والآن عندما أراها وأفكر بها جيداً ، وبعد أن شاهدت وجوهاً أخرى فإن وجه « نانا » خال من المعانى ، فليس فيه أثر للابتسام أو الثورة ، أو الألم أو الراحة ، لا شيء من كل هذا ، ذلك هو الموت ، فإذا مات عزيز علينا فلن يربطه بنا شيء بعد ذلك ، وإن ثوباً تعلقه فى مكانه الاعتيادى أجدى

فى بعث الذكرى من جثة الفقيد ، ترى ماذا يقول وجه « نانا » الجميل الذى أحببناه جميعاً ، والذى يضحك لنا جميعاً ، لقد أخذ الموت كل شيء وترك لنا قناعاً لا يأبه بنا ينصبه كحاجز منيع تصطدم عليه آلامنا فلا يسمع لها صدى » .

هذا وفى الرواية مقاطع ولوحات عديدة توفر للقارئ متعة حسية يؤدى العامل العاطفى دوره فى خلق الانطباعات القوية المؤثرة فى النفس فمن ذلك قوله فى وصف نظرات المجنونة : « رفعت إلى عينين لم أعرفهما ، عينين زائغتين تأبيان أن تتعرفا علىّ ، وكانتا تلمعان بين آونة وأخرى فتشعان بضياء غريب ثم تنطفئان فجأة بعد أن يجللهما حجاب كثيف لتغيبا فى عالم مبهم ، يالعينى المجنون إنى لا أكاد أراهما حتى تجتاحنى هزة إذ هما وحدهما يعكسان آلام الروح وتفتشان بحيرة عما فقده القلب والدماغ » .

أو متعة عقلية وذلك بالدلالة على بعض القضايا والظواهر الاجتماعية كقوله فى وصف حفلة صلح بين شجار وقع بين حيين بدافع العصبيات والأحقاد القديمة : « انتهى الصلح وأكل الكوسكوس وقرأت الفواتح الأولى عن روح الأحياء والثانية عن روح الأموات والثالثة عن روح الأولياء والرابعة للمزروعات

والخامسة لمجد الأسرة ، وكانت الأخيرة أحبها لقلب جدتى وهى التى كانت تتلوها بحماسة » .

أو متعة فنية بتسجيل اللمحات النفسية الخاطفة كقوله فى وصف مشاجرة نسائية : « فى زقاق ضيق جرت معركة نسائية صاخبة ، مضحكة ، وكن فى تجمعهن يشكلن عنقوداً متحركاً متنوع الألوان ، حيث يمتزج اللون الأسود بلون القوط الأحمر ، وبينما كان الرجال يفرقون جموعهن كان بعضهن ينتهزن الفرصة لتوجيه ضربة غادرة أخيرة إلى عدوتها » .

أو قوله فى وصف نسوة كن ينظرن إليه فيشعر بالحياء والخجل : « كانت لهن عيون كبيرة سوداء ، فكأن نظراتهن عندما تهبط على تجردنى من ثيابى » .

وهو فى كل ما كتبه يدل على أصالة قوية هى أولى سمات الأدب الرفيع .

تتجلى موهبة مولود فرعون فى وصف الريف ، فهو ابن الريف ، فيه عاش وفيه تكونت شخصيته ، ولعل نشأته فى وسط الفلاحين قد أوجدت عنده هذا الإحساس بحياة الفلاحين ، ومكنه من دراسة أحوال أهل هذه القرى الجبلية النائية ، وتصوير عاداتهم وتقاليدهم وتصوراتهم وأنماط حياتهم المادية

والاجتماعية . أقول دراسة أحوال لأن رواية « الأرض والدماء » التى ألفها مولود فرعون قد تضمنت إلى جانب الناحية الروائية دراسة اجتماعية قيمة تكشف لنا أسرار هؤلاء القوم المنعزلين عن العالم الخارجين ، المنطوين على أنفسهم ، الرازحين تحت وطأة العادات القبلية والعصبيات العرقية ، ولو أردنا مقارنة هاتين الناحيتين الروائية والاجتماعية لرجحت الثانية على الأولى فى الطرافة والمتعة .

وخلاصة الرواية أن الشاب الجزائرى عامر بن قاسى هجر قريته شأن أمثاله من أبناء قريته إلى فرنسا ليعمل فى مصانعها ومناجمها بعد أن باع أرضه ، وبعد غياب دام خمسة عشر عاماً عاد إلى قريته ليعمل فى الحقل ، فوجد أن أباه قد مات ، وأن أمه كمومة تعانى الفقر والعوز ، وكان أثناء وجوده فى فرنسا قد تعرف على فتاة فرنسية هى ابنة عمه « حملوش » من خليلته الفرنسية « إيفون » فتزوجها وعادا معاً إلى قرية « أنجل نزمان » وقد أثارت عودته إلى القرية التطفل والدهشة والاستنكار عند الكبار والصغار . وبعد مدة من الزمن استطاعت الزوجة أن تتكيف مع المحيط الجديد وأن تعيش فترة ذاقت فيها طعم الهدوء والسعادة ، ولكن عامراً أحب ابنة عمه « شهبا » وبعد

حوادث كثيرة لعبت فيها الغيرة وتقاليد العرض فى هذا المحيط المقفل قتل عامر وابن عمه سليمان زوج شهبا فى انفجار لغم أرضى ، وعادت القرية إلى حياتها السابقة الرتيبة .

* * *

عاد عامر إلى قريته بعد أن عاش فى فرنسا متنقلا بين مدنها الصناعية ، فاستقبلته قريته الصغيرة بخصاصتها وبؤسها تلك القرية التى هى « مجموعة بيوت بنيت من أحجار وطين وخشب ، وهى فى بدائيتها تكاد لا ترمز إلى تدخل يد الإنسان الساذجة فى بنائها ، فكأنها بنيت لوحدها كما عرضت لساكنيها ، حتى إنها لتعتبر أعجوبة فى هذه الأرض العاقة التى اختلطت بها ، والتى يعيش عليها كل فرد من أفرادها حتى ينتهى به المطاف إلى نوم أبدى تحت بلاطة من الحجر الأسود . . . إننا لا نجد فى القرية أى أثر للإنسان ، متيناً أو ضخماً ، معقداً أو جميلا يستطيع أن يتحدى به العصور ، أو يدل به على ماض مجيد ، بل نشعر هنا بجهد الإنسان المنعزل ، القليل الغناء ، الجلف ، المجرد عن الوسائل ، الذى يكدح ليعيش . والمفهوم أن هذا الجهد المتواصل لا يذهب أبعد من عمر إنسان ، ولذا كان التراث فى هذه القرى ضئيلا ، وكان على كل جيل

أن يبدأ البناء من جديد ، وألا يشتغل إلا ليومه ونفسه » .

لقد تغير كل شيء فى القرية حتى معالم الأشياء والمخلوقات لم تعد لها تلك البهجة فإن « الطريق التى تلتهمها الأشواك البرية قد أصبحت حقيرة ، والسنديانة الكبيرة التى تصور أنها ستكون عملاقة ، والتى كان يفكر بها كلما شاهد دوحة فى فرنسا لم تعد تستحق أى احترام ، فهى هنا تنتظره منذ خمسة عشر عاماً بأوراقها الغبراء المتناثرة الموزعة ، وشكلها العجوزى النحيل الذى ليس فيه شىء من معانى العظمة ، لقد شاخت شجيرات التين ولكنها لم تكبر ، وهنـــا وهناك جذول يابسة ، وأغصان متكسرة ، وشجرة فتية شوهتها الحيوانات . . . إنه حقل كئيب !

أما السكان فهم هؤلاء الفلاحون التافهون الذين يعيشون كالنمل يشد بعضهم بعضاً ، يكتفون بالقليل ، راضين بنصيبهم كأنهم لا يشكون لحظة فى أنه يمكن لهذا النصيب أن يكون أكبر وأحسن » !

تلك هى القرية التى عاد إليها عامر مصحوباً بزوجه الفرنسية « التى تبدو عليها علائم الإرادة القوية كأنها مسلحة لمجابهة الحيـــاة » وكان لابد له من أن يشعر بشىء من

الخجل لما تقع عليه عيونهما من مناظر التأخر والبدائية ، فهو يشعر بما يشعر به كل من ذاق طعم الحياة الغربية وأعجب بنظامها ونمط عيشها ، فكأن السنين الطوال التى قضاها بعيداً عن مسقط رأسه وأهله قد أوجدت هوة بينه وبين محيطه الأصلى ، وقد تستمر هذه العقدة طويلا إلى أن يطبق عليه المحيط من جديد فتتلاشى المؤثرات والذكريات بفعل الزمن ولنسيان والعادات الجديدة المستردة فيحتل مكانه كفرد من أفراد القبيلة « ليس لغيابه الطويل من معنى سوى كونه فاصلة كبرى يستحيل عليهم تغيير معنى الجملة العام » .

كان عامر يشعر عند دخوله القرية بالخجل لمنظر « حمأة الطين الزرقاء التى تنساب من أبواب البيوت ، فى سواق رفيعة ، لقد خجل من كتل الغائط التى تنتن فى الزوايا ، ومن هذه الجدران الشبه منهارة والمرقعة بحصر القصب ، بل من هذه الأكواخ الحقيرة القذرة التى سودها الدخان ، إن هذه المناظر كانت ناقمة على عامر لأنه فضح أمرها أمام هذه الأجنبية » .

إن عامراً لم يخف عن زوجه هذه الحقائق ، فقد حدثها كثيراً عن الحياة فى القرية كيلا ينتابها اليأس وتصدمها الخيبة ، على أنه لابد للعائد من تعويض يخفف من الفوارق بين الحياتين

الأوربية والريفية البدائية ، وإلا لأصبحت الحياة شبه مستحيلة ، فإن عامراً لم يلبث أن عقد مفاضلة بين ما كان فيه وبين ما هو قادم عليه ، فما لبث أن علم أن البلاد التى أدهشته بعظمتها كان فيها « صغيراً ضئيلا » . . فهو هنا يشعر بأهميته وقدرته على العمل واحتلال مكانه فى عالم القرية ، ثم إن الالتزامات التى تحلل منها عند مغادرته قريته قد برزت أمامه من جديد ، فقد يحب ويبغض ، ويقلد ويحسد ، ويؤمن ويعمل حسب توجيهات دقيقة صادرة عن أسرته وأقربائه ، وهو شاعر بهذه التوجيهات عن طريق الحدس كما لو انتقلت إليه بالإرث لشدة رسوخها فى أعماق نفسه .

وفى القرية أشخاص فرحوا بلقائه وأنسوا به ، إلا أن هناك شخصاً خفق قلبه لهذا اللقاء أكثر من أى قلب ذلك هو قلب أمه كمومة التى عاشت بعد موت زوجها على صدقات أهل البر والإحسان من أهلها وأقربائها ، فلما عاد جدد أملها بالحياة وأعاد إليها اعتبارها المفقود وكرامتها المهدورة ، وقصة كمومة مليئة بالجوانب الإنسانية التى أبدع مولود فرعون فى إظهارها وتحليلها ، ولعل شخصيتها من أقوى الشخصيات المؤثرة التى عرضها فى كتابه ومن أجلها إلى قلبه ، فهى « امرأة

عجوز ، فقيرة ، مسكينة ، مثقلة بالتجارب والسنين ، وهى تجهل أين وصلت من حياتها ، تزوجت فى وقت مبكر من قاسى أب عامر فعاشت ضمن أسرة كثيرة الأفراد ، وكانت الحياة صعبة فتعلمت الصبر والكدح وذاقت الظلم والأذى ، فكانت الضحية فى أغلب الأحيان ، ولكنها إذا سنحت الفرص ترد على الأذى بمثله ، رزقت أولاداً ذكوراً وإناثاً ، وعرفت آلام الوضع دون عناية ، وعرفت أيضاً ليالى السهر والمرض وسنى الحرمان والحداد ، ثم كتب لها أن تشهد تمزق الأسرة فى القرية ، وتبعثرها فى المقبرة ، فلاقى أولادها أهلهم فى القبور ، وفى يوم من الأيام وجدت كمومة نفسها وحيدة مع زوجها وولدها عامر . . . فوضحت عندئذ المسألة ؛ إذ ليس أسهل عليهما من أن يربيا ولدهما عامر ويجعلا منه رجلا بأسرع ما يمكن ليعيل بعد ذلك أبويه العجوزين ، فأحيط عامر بالعناية والدلال ، وعومل ليس كولد وحيد بل كينبوع ثر للطمأنينة المقبلة والسعادة الشيخوخية الأنانية » .

على أنه تبين فى النهاية لأبويه أن قوانين الكون تسير على خلاف ما يريدان ويشتهيان ، وأن التضحية والفداء عند الأبوين يقابلها المنع والأنانية عند الأولاد ولذا غدا هذا « القصر

المنيف الذى كان منه عامر فى حجر الزاوية يضيئه كالشعاع المنير وهماً وسراباً خداعاً ، وأنه هذه الطمأنينة التى يجب أن تسيج أيامهما الأخيرة ، والولد البار الذى سيطبق لهما أجفانهما بعد مفارقة الروح الجسد أملا ضائعاً من الأولى ألا يفكرا فيه ؛ لأن عامراً بعد سفره إلى فرنسا قد شغل بنفسه عن أمه وأبيه » .

لم تكن كمومة براضية عن زواج ابنها ، وهى مؤمنة بأن هذه الأجنبية لا يمكن أن تكون زوجاً لابنها ، إن ما يناسبه هى فتاة من القرية نفسها ، وفى القرية كثيرات من الفتيات الجميلات اللواتى يرغبن به وهو الشاب الجميل الذى عاد ظافراً من بلاد الغربة يحمل ثروة لا بأس بها ، وكانت ظنون كمومة وتشاؤمها يذهبان بعيداً فى تحليل مساوئ الزواج من الأجنبيات ، وخطر هذا الزواج على حياة أولادهن إذ لا يبعد أن تصرع الأجنبية زوجها فى ساعة غضب غير آبهة بالقانون التى يساندها فى عملها ، وقد شارك أهل القرية كمومة فى اعتقادها فهم يشيعون بأن عامراً أصبح عبداً لزوجه ، وهمس آخرون بأنه اتخذ امرأة سيداً له ، وأشار غيرهم بشىء من الشماتة إلى أن الأجنبية عبء ثقيل على مالكها !

لقد اصطدم عامر بعقبتين : سكان القرية من جهة ،

وعادات القرية وتقاليدها ، فهو إن استطاع أن يذلل مصاعب الأولى ، فهو أضعف من أن يتغلب على الثانية . فإن نساء القرية لا « يردن الأجنبيات » فهن قد جئن ليسلبن زوجاً لم يجدن أحسن منه فى بلادهن ، فعلى الأجنبية إذن أن تتحمل متاعب هذه المغامرة ، وعليها أن تتحمل أيضاً الانتقادات الموجهة إلى سلوكها وطريقة لبسها وشكلها ولغتها ، وعليها إذا أرادت العيش بسلام بين ظهرانيهن التصامم عن الهزء والسخرية ، وشراء صداقات بعضهن بالهـــدايا ، وتملق الآخرات والظهور بمظهر التواضع والإيناس إلى أن تندمج تدريجيا فى الرهط ، وهى طبعاً لن تدخله إلا من الباب الصغير .

وإذا رحنا نفتش عن صفات مشتركة بين هذه الأجنبية وبين نساء القرية لوجدنا أن مارى لم تكن أجنبية بالمعنى العادى لهذه الكلمة بل هى من عالم آخر يختلف تماماً عن عالمهن « إذ لم يكن بينها وبينهن من صفة مشتركة سوى الجنس » وكن يعرفن مقدار اعتزازها بفرنسيتها وعدم جدوى المقارنة قائلات : « لتعتبر نفسها أعلى منا قدراً ، وهذا شأنها وخدها ، وان نذهب إليها لنقول لها رأينا فيها » .

على أن الذى جعل هذه الأجنبية ترضى بالحياة الخشنة

التى هى أقرب إلى البداوة منها إلى الحضارة هى أن حالها فى فرنسا لم يكن بأحسن من حالها فى القرية ، فقد كانت تعيش شأن الكثيرات من أمثالها العاملات اللواتى يدأبن ليلا نهاراً لتحصل الكفاف وذلك فى محيط جائر ، قاس ، استغلالى فيه أخطار الغواية ، ومآسى التغرير ، فقد تعذبت كثيراً قبل أن تلقى عامراً ، وتعاورها عدة رجال ذاقت منهم الهجر وألوان الغدر والخسة والخيانة ، فكان لابد من الرحيل خلاصاً من هذه الحياة المرهقة ، إن كوخ الأم كومة لم يكن أفضل من الغرفة المفروشة رقم ٤ فى شارع باربيس فى باريز ، وإن الذى تغير بالنسبة لهما هو الوسط ، إذ كانا يعيشان فى وسط إنسانى مادى بل فى منزلة خادمة أو جارية من الرقيق الأبيض ، أما الآن فهى فى عالم صغير محدود يرفعها إلى المقام الأول ، وهكذا ودعت بمجيئها إلى قرية « نزمان » عهد الذل والانحطاط .

إن نظرتها قد تطورت ، فهى ترى نفسها جميلة بين أولئك الفلاحات ، جميلة أكثر من أية مرة ، فإن أثواب الخدم التى ترتديها تبدو بالنسبة لثياب القرويات فاخرة ، أثاثها البسيط جدير بالإعجاب !

لقد كانت هناك عوائق أولية تمنع اندماجها فى المحيط

الجديد تتجلى فى هذا النفور والحذر الذى يقابل بهما الأجنبى فى البيئات المقفلة ، فقد كانت تعتقد أنها وعامر يؤلفان « زوجين غريبين ، متناقضين ، أضاع هو صفته القبلية وأضاعت هى صفتها الفرنسية » فكان لابد أن تكون الخطوة الأولى من جانبها ، فقد أرادت التكيف والمحيط بعمل إرادى فيه كثير من التضحية بكبريائها وكرامتها ، « فعاشت بقوة مع هؤلاء النسوة اللواتى كن يدفعنها إلى فهم لغتهن ، وإلى أن تجهد نفسها لإفهامهن ومجادلتهن بلغتهن ، فكان سلاحها فى البدء الإشارات والحركات الموفقة حيناً وغير الموفقة حينا آخر ، وينتهى كلاهما بانفجارات ضحكية » .

وقد ظنت أنها لن تستطيع تفكيك هذا التداخل فى الأصوات البحاء الحلقية منها والحادة وهذا اللفظ السريع الذى يتصف به اللسان القبيلى ، « فكانت ترفع حواجبها ، وتبسط عينيها محاولة أن تفهم شيئاً مما يقال فتعجز حتى عن إعادة ما سمعت » ، ثم إن هناك أصواتاً يستحيل لفظها لأن « لسانها كان يعجز عن ملاحظة الشباب الدقيقة جداً والأساسية غالباً ، فعلمت أن فى الدنيا أشياء خلاف الخمس وعشرين حرفاً فى الأبجدية الفرنسية » .

وهكذا كلما مر الزمن ازدادت أنساً بمحيطها الجديد ؛ وتكشفت لها نواح كانت تجهلها فعلمت مثلا أن وراء تأخر المرأة العربية وانحطاطها المادى والاجتماعى صفات إنسانية ومزايا خلقية تنطوى على الصبر والتسامح وسعة الصدر التى تحكم بها على ضعف النفوس ، وعلى رأفة مستمدة من هذه القدرية العفوية واللامبالاة والتى ليست سوى « تجربة لحياة لا حلاوة فيها » . وكانت مارى كلما توغلت فى تجربتها أطلعت على خفايا الحياة الزوجية فى الريف الجزائرى ، فهو عالم من الفضائل الخلقية والنفسية التى نقلها الفتح العربى وخلدها الإسلام فالمرأة هناك « مهذبة ، فيها حشمة وحياء وخفر تستجيب لصنع المعروف . . . وهى تحت مظاهر الإهمال نظيفة لا تلمس الأشياء قبل أن تغسل يديها ، وتنتظر ميعاد الطهارة قبل أن تجيز لنفسها طهى الطعام . . وهى فى كل ذلك رضية ، متواضعة شديدة الغيرة على عرضها وشرفها ، بعيدة عن الشهوة الجنسية والضـــلال الخلقى لأن المهم عندها ليس الحب بل الحياة ، فهى القضية الأساسية ، وكل شىء موقوف عليها ، ولذا كان نصيب هؤلاء القوم من المرح ضئيلا » .

أما عامر فقد تطورت نظرته إلى الحياة ، فقد أكسبته

التجارب والأيام السوداء التى مر بها نضجاً واتساعاً فى الأفق العقلى فلم يعد للناس فى نظره تلك « الهالة المثالية التى تضفيها عليهم الطفولة ، شأن الورق اللماع الذى تغلف به الصور ، فهو يرى الخشونة والتجعدات والشقوق » أى أنه يرى الحياة فى صورها البشعة الخفية .

لقد عاد من فرنسا مستجيباً لنداء الأرض ، حاملا معه تجاربه التى هى فى الوقت ذاته تجارب العمال الجزائرين الذين يعيشون فى فرنسا منذ بدءوا فى الهجرة إليها قبيل الحرب العالمية الأولى ، فهو لن ينسى مثلا هؤلاء العمال الذين « يتكدسون فى غرف أو أكواخ صغيرة ضيقة فى نهاية الزقاق قريبة من خنادق المجارى الكبرى . . . هم أقل العمال أجوراً ، وأقلهم ثقافة ، وهم أحوج من غيرهم إلى التساند والاتحاد . يتقاتلون ويحسد بعضهم بعضاً ، ويشى بعضهم ببعض ، وجدوا فى فرنسا مسرحاً لإيقاظ عصبياتهم القبلية وعنجهيتهم والتفاخر بأنسابهم وقبائلهم. يتجمعون هنا وهناك فى شكل مستعمرات ، يقترون على أنفسهم ليشترى أحدهم فيما بعد قطعة أرض من جاره فى الجزائر ، أو قسماً من باحة ، يهلكون أنفسهم كالدواب ، بخلاء ، سيئو الطبع ، فيهم ذلة ومسكنة ، يعود العائدون منهم إلى

بلادهم وقد ملأهم الغرور والأنانية ؛ أما الباقون ، فيعيشون فى سفه ، يبذرون أ. ورهم ، فهم فى بؤس مقيم ، يلومون القدر وأهم أحرى بأن يلوموا أنفسهم » .

إن هذا البؤس الذى تردى إليه المهاجر الجزائرى لا يمنعه من تلبية نداء أرضه الملح مهما بعدت الشقة وامتد الهجر وتنوعت البلدان ، فهو حب أصيل تمكن من نفسه ، فى هذه الأرض دفن الآباء والأجداد ، وبعثت الذكريات وحنت القلوب ، إن حب الأرض وعدم التفريط بها يقسران إلى حد بعيد هذه الضراوة التى يدفع بها الجزائريون جحافل المستعمرين عن أرضهم ، فهى جزء من كيانهم وعلى ضوء هذا التعلق الصوفى بأرض الوطن تفسر النزعة القومية الجزائرية ، ومن الطبيعى ألا يغفل كتاب الجزائر هذه الناحية فنحن واجدوها تقريباً فى كل آثارهم ، وفى « الأرض والدماء » مقاطع رائعة تتجلى فيها هذه النزعة فى نفوس القوم قال الشيخ رمضان لابن أخيه عامر : « إن أرضنا متواضعة ، فهى تحب بنيها وتعوض عليهم من حيث لا يدرون ، كما أنها تتعرف على بنيها ، وعلى الذين خلقوا من أجلها وخلقت من أجلهم ، فهى لا تدفع الأيدى البيضاء والكسالى والضعفاء فحسب بل الأيدى المرتزقة التى تريد

استنفاد خيراتها دون أن يحبوها ( وما عليك إلا أن تشاهد حالة حقول الأغنياء التى أوكل العمل فيها إلى العمال المأجورين إن أرضنا ترفض الأيدى التى تدعى تزيينها وتجميلها ، ولا شأن لها بالمخارف المجروفة ، والزهور النادرة والحواجز المستقيمة . . . إن جمالها يجب أن يكتشف ، ولذا يجب أن نحب الأرض . » . إن الوطن هو هذه الأرض التى يعيش الأحياء عليها ويأكلون من خيراتها ، وينام الأموات تحت ثراها ، هو هذا التراث الذى ينقله الأجداد للأحفاد فينقله هؤلاء بدورهم إلى أولادهم ترقبهم عيون الأموات وتشهد ما يفعلون لأن « الأموات دوماً على أبوابنا ، يشهدون حركاتنا ، ويسمعون كلامنا ويعرفون أسرارنا » .

إن الأوضاع الاستعمارية جعلت من الجزائر بلداً فارغاً مجدباً متأخراً اقتصاديا يعيش أهله فى مستوى معاشى وغذائى منخفض لا يعادله فى انخفاضه أفقر بلاد العالم ، وهذا ما يجعل مشكلة الفقر والبؤس من أعقد المشاكل التى يواجهها الواقع الجزائرى ولا أعتقد أن شعباً على وجه الأرض عانى ما عاناه الشعب الجزائرى من ألوان الحرمان ، والمنع والتقنين ، حتى أصبح الفقر والجوع صفتين فى طباعه الأصيلة ، وقد انعكست

هذه الظاهرة على آثار كتاب الجزائر ، فلم يخلو منها كتاب أو رواية أو بحث ، واستطاع مولود فرعون هو الآخر أن يجلو عن مظاهر الفقر فى القبائل الجبلية صوراً فيها مرارة وحزن وتهكم ، بل استطاع أن يفلسف الفقر والحرمان بالنسبة للعقلية الريفية الجزائرية ، وأن يجعل من أبطاله فرائس ضعيفة مستسلمة للجوع شأن كمومة التى عاشت « تقتّر على نفسها ، واعتادت ألا تأكل حد الشبع ، إن الجوع رفيق قديم . . والطريقة سهلة ، يجب أن نقلل من وجباتنا الغذائية تدريجياً ، ثم إن هناك الصيام الذى يرضى الله ورسوله ويظهرنا بمظهر الأتقياء ، ويعرف الذين ألفوا الحرمان أنه من اليسير تحمل الجوع ، فهم يفقدون الشهية تدريجيا ثم تنخفض التغذية ، ولكنهم لا يتألمون أكثر من الذين ينعمون بالغذاء فهى قضية درجات . . وبعد فليس الفقر عيباً ولكنه حالة من الحالات يجب مجابهتها كغيرها ، فله قواعده التى يجب قبولها ، وقوانينه التى يجب الانصياع لها كيلا يكون الفقير فقيراً سيئاً ، لأن الفقير هو الذى يعرف قبل كل شىء كيف ينتظر ، إن الله يعطى دوماً لمن يجيد الانتظار ، ولذا يفضل الجيران الأغنياء ألا يحلوا مكانه فيكتفون عادة بالعزلة ليأكلوا خلف أبوابهم المقفلة . » .

وهناك مقاطع تحلل نفسيتى الفقير والغنى فى هذه البيئة المحرومة ، بيئة الفقر الأصيل المألوف والغنى العارض الغادر ، إن جل ما يستطيعه الإنسان هو أن يعيش بتحفظ ، ويسمى هذا عادة الحياء ، لأن فى السعادة جانباً من العار ، وليس هذا العار فى مشاهدة بعض مظاهر البؤس بل عندما تبدو على السعيد علائم احتقار الآخرين. . . ولذا يختفى الغنى حياء ليأكل جيداً ، ويختفى الفقير ليجوع على هواه ، ولكن الكثيرين لسوء الحظ يفقدون هذا الحياء ويصبحون مبغضين ، غير محتملين . »

إن الفقير الممقوت هو الذى يثقل على الآخرين ، لأن الناس يضيقون ذرعاً من سماع شكواه الدائمة وعرض بؤسه فى شىء من الرضى والإعجاب بالذات ، فينتهى به الأمر إلى ارتكاب أنواع النذالات . أما الغنى فيبدو بغيضاً عندما يحرم من نعمة التحفظ ، ونحن نقول : إن الغنى الوقح يجد دوماً عقابه ، ولا نقول ذلك عن سذاجة بل عن تجربة ، لأن لكل شىء فى الدنيا ثمناً ، ولذا ارتسمت فى أذهاننا تعريفات للفقير الجيد ، فهو الذى يعرف الانتظار ، ومن المسلم به أن الانتظار لأجل محدود ، لأن من يموت فى البؤس دون أى تعويض يجد فى الموت ذاته تعويضاً وعندها يقول

الناس : إن الموت قد أراح فلاناً ! فيكونون بذلك قد أدركوا الحكمة الأزلية !

إن وراء اللوحة الروائية فى « الأرض والدماء » دراسة اجتماعية واقعية لعادات القبائل البربرية وتقاليدها واعتقاداتها وأساطيرها التى نلقاها فى البلدان ذات الرواسب البدائية التى تعيش على هامش الحياة الحضرية . إن المظاهر العامة لهذا المجتمع المقفل تتكون من « مجموعة من الدوائر الضيقة التى تحبس الناس ضمن نطاق الأسر والقرابات ، وتجعل من القرية قفصاً يعج بالناس حيث يتلاصقون ويرصد بعضهم بعضاً ، ففى فرنسا مثلا ، فى القرى الكبيرة والمدن الصغيرة والمراكز الصناعية فإن الأسر تأتى وتستقر ، ثم ترحل نهائياً ، ويمكن لأناس غرباء أن يتلاقوا ويعيشوا جنباً إلى جنب ، ثم يفترقون بعد حين ، فهناك نوع من الحرية فى الحرية ، أو شبه استقلال ، أو نوع من الأنانية التى تجعل من الحياة معركة حرة على الفرد أن يخوض غمارها وحده ، ضارباً كشحاً عن غيره إلا بالقدر الذى هو فى حاجة إلى مصالحتهم ، فقد يمدد أو يختصر علاقاته ، وينشىء لنفسه الضوابط ، فى حين أن الحالة فى القرية القبلية مغايرة تماماً ، فالقرية وحدة اجتماعية

وجغرافية معاً ، فإن أولاد العمومة يسكنون فى حى واحد ، والأسر مستقرة دوماً فى أحيائها ، وإذا صادف وهاجرت إحدى الأسر إلى مدينة من مدن الجزائر فمن النادر أن يسمح لأسرة غريبة أن تحل محلها فى القرية ، إن القرية جزء لا يتجزأ ، يعرف أفرادها بعضهم بعضاً منذ أجيال » .

وفى الرواية أشياء طريفة عن عادات القبائل واعتقاداتهم مما نجد مثله فى أرياف الشرق العربى ويكفى بأن تعلم بأن « العقم عند الرجال والنساء من علائم الغضب الإلهى ، وهو دليل على أن الذرية إلى انطفاء لأن أفرادها طغوا وتجبروا . وأن أكل «أحشاء القنفذة المشوية» مدة سبعة أيام مخلوطة بالعسل ، أو الفطائر المغمورة بحليب الكلبة . وأن حشيش « المجنون » الذى لا يعرفه إلا القليلون ، وأن بقايا حشفة ختان الصبى كلها مفيدة للحمل . وأنك إذا أردت إخماد فتنة بين فريقين فما عليك إلا أخذ حصاة والبصق عليها ووضعها على الأرض من الجهة المبللة ! » .

وغير ذلك من الأشياء القائمة على الغيبيات والتماس روح الأجداد وعبادة الأولياء والصالحين والإيمان بالتنجيم ورجم الغيب وجميع مظاهر الحياة اليومية مما يضفى على الرواية صفة

وثيقة اجتماعية قيمة تكشف عن أسرار هؤلاء القوم .

وقد درجت على عادة إيراد بعض الصور الأدبية والفنية التى وفق الكاتب فى إيرادها ودونك بعضها :

قال يصف رمضان وزوجه سمينة وهما جالسان أمام الموقدة : « كان الزوجان جالسين على ضوء جمرات حمراء يغطيها غشاء خفيف من الرماد ، وكان البيت مغموراً بالظلمة وشعر رمضان كأنه فى قبر حيث لا شىء حى إلا هذه الموقدة التى تنهار وتموت بدورها قليلا قليلا . كانا صامتين ، حتى إن رمضان نسى جسمه المتعب ، ثم أخذ يحدق فى لهبه صغيرة تتراقص بين جمرتين ، مترددة ، شفاقة ، شفافة كحجاب خيال ملىء بالأسرار والأهواء ، فهى تارة تتوضح وترتسم وتغلف بشره بقايا جمرة ، وتارة لا تتوصل جهودها الضائعة إلا فى أحداث لولب صغير من الدخان ، فيلاحظ رمضان تكون كمية من الرماد على الجمر .

إن الحياة هكذا ، فهناك لهيب ينبع ويرتفع ثم يرتفع . ولكن الرماد ذا اللون الصوفى يغطى فى النهاية الجمر ، وفى الصباح تجمع ربة الدار حفنة من الغبار الأبيض وتملأ «كانونها» بالأعواد الصغيرة الجافة لنار جديدة ولهيب جديد يعقبه رماد جديد ! ! ».

٩٥

وقال يصف ضوء المصباح فى المنجم : « ابتعد الضوء الصغير وهو يرتجف ، وتبعه عامر بنظره فصار كلما ابتعد تناقص نوره تدريجيا حتى صار ضوءاً غير حقيقى ، يشبه النجم أو دودة اليراع وانطفأ تماماً . » .

وقال فى رجل سمين : « كأنه كيس من اللحم المترهل ! » .

## ٤ ــ كاتب ياسين

ولد كاتب ياسين فى السادس والعشرين من آب سنة١٩٢٩ فى إحدى مقاطعات قسطنطينة ، من أصل قبلى ، ودرس فى مدرسة ستيف ، ثم أوقف وسجن فى السادسة عشرة من عمره على أثر المظاهرات الدامية التى جرت فى الثامن من مارس سنة ١٩٤٥ ، ثم أطلق سراحه بعد عدة شهور .

وفى حياة كاتب ياسين تواريخ هامة تشكل مراحل تكوينه العقلى وظروف حياته المعاشية والمادية ، وتبدأ هذه المراحل سنة ١٩٤٦ بإصدار مجموعة شعرية بالفرنسية أسماها « نجوى » Soliloques لفتت إليه أنظار الأدباء فى العاصمة الفرنسية ، وفى سنة ١٩٤٧ رحل إلى باريز ومكث فيها تسعة شهور ، وفى سنة ١٩٤٨ أقام ثانية فى باريز ونشر فى مجلة « مركور دى فرانس » قصيدة عنوانها « نجمة » وفى سنة ١٩٤٩ عين مراسلا لصحيفة الجزائر الجمهورية Alger Républicain ثم سافر إلى العربية السعودية والسودان المصرى وآسيا الوسطى السوفيتية ونشر أثناء ذلك قصائد فى باريز والجزائر . وفى سنة ١٩٥٠

توفى والده فحمل بعده أعباء أسرته ، وفى سنة ١٩٥٠ هجر كاتب ياسين مهنة الصحافة واشتغل حمالا فى مرفأ الجزائر وأعقب ذلك فترة عطالة ، ثم رحل بعد ذلك إلى باريز للمرة الثالثة فاشتغل هناك خادماً فى مزرعة فعاملا زراعيا ثم عاملا بناء ومساعداً كهربياً وغير ذلك من المهن المتواضعة . وقد استطاع كاتب ياسين من سنة ١٩٥٢ إلى ١٩٥٤ أن يقف بفضل إخوانه جل وقته على العمل الأدبى ، فأتم تأليف روايتين ضخمتين هما « الجثة المطوقة » وهى مأساة نشرت فى مجلة « اسبرى » سنة ١٩٥٥ ، ونجمة ، وهى موضوع دراستنا .

إن هذه الترجمة الموجزة تعكس أهم الخصائص التى تميز أدب كاتب ياسين ، فقد بدأ حياته كشاعر ينظم بالفرنسية ، ثم احترف الصحافة ، تلك المهنة التى نقلته فى أوساط وبلدان مختلفة ثم أتيح له أن يسيح فى بعض الأقطار الشرقية فاطلع على أنماط من الحياة والنظم وأحوال الشعوب مما وسع مداركه وزاده شعوراً بالحرية وتمسكاً بها ، زد على ذلك مزاولته المهن المتواضعة واتصاله بالبيئات الشعبية والأوساط العمالية الكادحة مما قوى روحه الثورية وزاد فى خبرته وتجاربه . فحياته إذن

قسمان علوى وسفلى عالم الشعر والخيال والرمز وعالم المادة والحقيقة والواقع ، إن هذه الاثينينية تنعكس فى روايته الكبرى « نجمة » فهى تجمع بين صفتين متلازمتين الواقعية والرمزية ، وهذا ما أضفى عليها طابعاً فريداً لا نجد مثيله عند زملائه من كتاب الجزائر مما جعله أقرب فى الناحية الروائية الفنية إلى الكتاب الأوربيين كمارسيل بروست وكافكا وفوالكنير الأميركى ، ولعل هذا الأخير أكثرهم تأثيراً فى أدب كاتب ياسين .

ولا أدل على غرابة رواية نجمة من تلك المقدمة التى وضعها الناشرون يلفتون بها أنظار القراء إلى ما قد يخفى عليهم من أجواء الرواية ومراميها وأهدافها « فهى عالم غريب وغامض يلاقى القارئ فيه صعوبة كبيرة بجمع أطراف الرواية وتأليفها » فهى عبارة عن لوحات متعددة تنساب أمام القارئ فتنقله بخفة وسرعة عبر مشاهد وحوادث فى إطار متمدد مائع ، فالشخصيات متداخلة ، والمفاجآت مستمرة ، وقد تشغلك اللوحات والصور الخاطفة واللمحات التحليلية عن تتبع الرواية وتفسد عليك التسلسل الذى ألفته فى الفن الروائى عادة ، ففى كل مرحلة يشعر القارئ بنوع من الانزعاج ويحاول جاهداً معرفة النقطة الأساسية التى تتفرع مأساة الأشخاص ، فالقصة

العامة المتطورة معدومة وكذلك التاريخ والتوسيع الإنشائى فهما غير محدودين فى الزمان والمكان ولا يسيران فى توغلهما وتسلسلهما حسب الطريقة الكلاسيكية والأصول الروائية المتبعة فإن الحوادث تجرى وتتحول متحدية مقاييس الزمان والمكان ، فكأن أبطال الرواية كائنات لازمنية مجردة من الثقل الأرضى ، فكأن كاتب ياسين يزدرى الزمن ومفعوله التهديمى وسيره المطرد فهو بين وقت وآخر يجمد الزمن فى لحظة أبدية ليعطيك بداية أو نهاية حادثة أو فاجعة فهو قد « بنى عالماً كوكبيا أقام فى وسطه شمساً هى « نجمة » يدور حولها عدد من الكواكب الكبيرة والصغيرة لكل منها نجمه الخاص ، ولئن كانت الشمس ثابتة ، وكانت تلتمع دائماً بالكثافة نفسها فنحن لا نعرفها إلا بانعكاساتها على الكواكب التى تحيط بها والتى تبعدها حركتها أو تقربها من نورها ، وكذلك الأمر فى شأن النجوم ، ولما كانت جميع هذه الكواكب سجينة الحركة نفسها التى تجعلها حاضرة ينتج عن ذلك اختلاط تام بين الماضى والحاضر والمستقبل ، فالقصة تبدأ فى لحظة معينة ثم تتطور وتقف وتعود إلى النقطة الأولى ، ثم تتخذ وجهة أخرى تسلكها ردحاً من الزمن قبل أن تعود إلى نقطة الانطلاق وهكذا

دواليك فنحن داخل حركة دائرية تسير فيها الرواية نهج الطى لا النشر لأن الانتقال من حالة إلى أخرى تجرى حسب انزلاق الفكر عبر خط لولبى دائمى . ولا تكفى صورة الحجر الملقى فى الماء لإيضاح الحركة فبدلا من أن تشمل التموجات مساحة ما فإنها هنا تضغط حجماً من الزمان والمكان ندرك جميع نقاطه فى نهاية الرواية(١) .

وخلاصة الرواية أنه كان يقطن فى مدينة بونة أربعة أصدقاء هم : رشيد والأخضر ومراد ومصطفى ، وكانوا قد تلقوا العلم معاً فى المدرسة وقد اشتركوا يومئذ فى النضال الثورى سنة ١٩٤٥ فطردوا من مدارسهم وعذبوا وسجنوا ثم فرقتهم ظروف الحياة بعد خروجهم من السجن وقاموا بمغامرات كثيرة إلى أن جمعتهم الصدف فى ورشة عمالية يشرف عليها مدير فرنسى كان يكره العرب ويضطهدهم و يتلذذ بتعذيبهم . وكان هؤلاء الشبان الأربعة يعشقون فتاة تدعى « نجمة » زوجة رجل اسمه كامل ، ويظل أصل نجمة مجهولا إلى أن يتوصل الأربعة تدريجياً إلى اكتشافه ومعرفة الحقيقة ، فقد أسلمت نجمة وهى طفلة إلى امرأة تدعى لالافطمة فربتها حتى بلغت سن الشباب ،

---

(١) المقدمة ومقال الأستاذ نادو فى صحيفة « فرانس اويسوفاتور »

ونجمة فى الحقيقة بنت امرأة فرنسية وأب جزائرى حملت بها أمها فى ليلة قضتها مع مراد ومصطفى فى إحدى المغاور حيث قاداها هناك ، وعند الصباح وجد زوج الفرنسية —مقتولا فى المغارة . والقاتل المفروض هو والد نجمة السى مختار .

وهنا يلازم رشيد السى مختار قاتل والده حبا بجلاء السر واكتشاف حقيقة نجمة التى قد تكون أخته ، وقد يكون السى مختار أباها . كما أن السى مختار هو أب كامل زوج نجمة ، ولم يستطع منع هذا الزواج السفاحى خشية اكتشاف سر ولادتها . وفى رحلة إلى الحجاز أطلع السى مختار رشيداً على سر نجمة ، واتفق الاثنان على خطفها من زوجها — أى من أخيها — وإرجاعها إلى قريتها الجبلية حيث تعيش بقايا قبيلة « قبلوت » التى دمرها الفتح الفرنسى وشرد أهلها ، وهكذا عادت نجمة على الرغم من مغامراتها ونسبها المشوب بالدم الفرنسى إلى منشئها فتغلب بذلك داعى الأرض ونداء العرق على جميع الملابسات والحوادث والاعتبارات الاجتماعية والعرقية .

ولكى تفهم الرواية تمام الفهم من وراء الخيال الروائى ، والحاجب اللغوى المستعار يجب أن تقرأ على ضوء « الفكرة الجزائرية » والوجود الجزائرى ، فهى قضية شعب مظلوم

ولكنه حاضر ، وفكرة وطن مفقود ولكنه ماثل فى أذهان بنيه « تحمله إليهم نسمة وحيدة تهب على البلاد ساقتها إليهم الغابة والصحراء والبحر » .

وتكمن فكرة الوجود الجزائرى فى هذه الأرض التى يعيش عليها الشعب الجزائرى وفى الخيرات التى تكمن فى أحشائها والتى يمعن المستعمر فيها نهباً فى حين حرم أهل البلاد من القوت الضرورى والحقوق الإنسانية البدائية .

وتتجلى فكرة الوجود الجزائرى فى هذه الصور الاستعمارية القائمة عن الحياة الجزائرية فى الحقول والمزارع والمدن وورشات العمال والسجون ودور القضاء ، وتتجلى أيضاً فى هذا الحقد الذى يكنه أهل البلاد للمستعمر وفى الازدراء الذى يكنه المستعمر لأهل البلاد ، وتشتد البغضاء بين الحاكم والمحكوم بقدر ارتفاع الوعى القومى وانتشاره مما جعل أحد المتظاهرين يصيح فى بنى قومه :

إلام الانتظار ، إن القرية لنا
أنتم الأغنياء تنامون على سرر الفرنسيين
وتعملون فى مستودعاتهم
أما نحن فلدينا أردب من الشعير ودوابنا تأكل كل شىء

إن إخواننا فى سَطيف قد ثاروا

ولما نصح العقلاء المتظاهرين بالتزام السكون والاعتدال والاعتماد على الرؤساء لأن الشعب عاجز عن مقاومة الدبابات صاح المظلومون :

ليدلنا الرؤساء على الطريق

لقد كفانا نوماً ، لنهاجم

قلت لى وجتى : إنى ذاهب لجلب القمح

أيتها الأيدى الحمراء ! كفاك نوماً .

وتتجلى أيضاً فى قول النبى مختار مخاطباً رشيد : « يجب أن تفكر بمصير البلاد التى أتينا منها ، تلك البلاد التى ليست فرنسية ولا يرأسها باى أو سلطان . لعلك تفكر بالجزائر المحكومة وماضيها المبهم ، يجب أن تعلم بأننا لسنا بعد أمة ، ولسنا سوى قبائل مبعثرة ، ولم يكن إعزاز القبيلة رجوعاً للوراء فهى الرباط الوحيد الذى بقى لنا للم الشعث والتلاقى حتى ولو كنا نأمل أحسن من هذا . »

إن هذه القبائل المبعثرة المشردة التى هى صورة للجزائر المفككة الأوصال تجسدها فى نظر كاتب ياسين قبيلة « قبلوت » التى غزاها الفرنسيون إبان الفتح وشردوا أهلها ،

ولكن الروح الجزائرية القائمة على التمسك بالأرض وحب الحرية كانت تحول دون فناء القبيلة إذ ما لبثت أن لمت صلاتها وقوت أواصر القربى والعصبية والتزاوج واعتنقت أسماء جديدة لتنجو من التنكيل بعد «أن تركت حفنة من الشيوخ والأرامل واليتامى على الأرض الملوثة لتخلد أثرها وذكرى القبيلة المصروعة» . . . وهكذا ترى أن القبيلة الصغيرة على صورة أمها الجزائر تنشد البقاء وتقاوم الغزاة مقاومة عنيفة حتى إذا حلوا أرضها غزتهم بدورها وتمثلتهم على مر الزمن .

إن فكرة الوحدة والنضال لها جذورها فى الماضى تعود إلى زمن عبد القادر الجزائرى وهو «الظل الوحيد الذى كان بمقدوره أن يمتد على الجزائر بأسرها ، فهو رجل السيف والقلم ، والرئيس الوحيد الذى يقدر أن يوحد كلمة القبائل ويرفعها إلى مصاف أمة ، لولا أن أفسد عليه الفرنسيون أمره وحالوا دون نضاله الموجه ضد الأتراك ، ولكن الغزو الفرنسى كان شرا ضروريا ، وتطعيماً مؤلماً يجلب بشائر التقدم إلى شجرة الشعب الجزائرى التى آذاتها ضربات الفأس» . فإن الفرنسيين شأنهم فى ذلك شأن الرومان والأتراك فلم يكن لهم من بد إلا يبثوا جذورهم ، تلك الجذور التى هى رهائن الوطن الذى يتمخض ،

والذى يطمعون بخيراته ، والفرنسيون إذ يحاولون منع ولادة هذا الوطن إنما مصيرهم إلى الخذلان ، إذ لابد لهذا الوطن أن يتحرر بلونهم ولابد أن يطردوا منه ، وكما أن الجزائر ابتلعت الغزاة وتمثلتهم فإن الأرض العطشى ذاتها ستمتص دماء أمثالهم لتخلق منها جزائر فتية قوية تدب فيها الحياة الحرة المنطلقة من كل قيد.

* * *

من مزايا أدباء الجزائر أنهم أبناء الأرض التى أنبتتهم ، فهو شهود حياتها ومآسيها ، بل هم المرآة الأمينة التى تنعكس عليها الحياة الجزائرية فى سموها وانحطاطها وجمالها وقبحها ، ولذا حفلت رواية « نجمة » — إلى جانب الناحية الرمزية التى اقتضتها اصطلاحات الفن الروائى — بالصور الواقعية والملاحظات النفسية والصور الاجتماعية واللوحات التحليلية الموفقة التى تشهد للمؤلف بعمق نظرته للحياة وغنى تجاربه عن الأشياء والناس .

قال يصف يقظة القرية ونهوض العمال : « بدأ منظر القرية بعد أن نظفها الليل كئيباً ، مبتذلا كمنظر مهرج مسح عن وجهه أصبغة التنكر ، وكان الفجر رطباً رماديا لا تسمع فيه سوى خطوات متثاقلة ، وسعال متباعد ، وسلام يلقى فيرن صداه ، تميزه هذه الاستجابة المنتزعة التى تغلب على الإنسان

عند صحوه من النوم . ولم يستجب المارة فى مثل هذه الساعة إلى ردة عادة غسل الوجه فقد تجمعوا فى « برانسهم » يطرقون بعصيهم بانتظام يشكل يخالطه الغيظ والخمول ، فيدخلون الواحد تلو الآخر إلى خمارة وحيدة حيث يستعيدون قواهم منذ الجرعات الأولى : إن القهوة تطرد التعب والبرد .

إن السماء لا تزال مكفهرة كالأمس .

قال أحد الكناسين وهو منحن نصفين :

مع أن الوقت ربيع !

فهز الفلاحون رؤوسهم ، وما لبثت الخمارة أن فرغت من الرجال بمثل السرعة التى امتلأت بهم . الكناسون والفلاحون العمال يتتابعون جميعاً على الطريق المستقيمة فأصبح سعالهم أقل يبوسة ، وضربات العصى أخف وطأة كأن كل واحد منهم قد استعاد ثقته بنفسه حازماً أمره لنهاره كله !

وقال يصف سجون الجزائر حيث يلقى الموقوفون أنواع التعذيب : « تقدم الأخضر تحت وطأة ضربات الشرطة ، فصرح بهويته ونسبه وغير ذلك من المعلومات الشخصية .

وظل رجال الشرطة يضربون .

وظل الضابط يقرأ ورقته .

– إذن إن السيد تلميذ ؟

– فشهق الأخضر قائلا : نعم تلميذ !

– فعلق الشرطى سوطه على زناره ، وتناول حبلا رطباً من على حافة حوض الماء ، وامتنع الشرطيان الآخران عن ركل الأخضر ، وأخفى هذا رأسه بين ذراعيه على محاذاة الأرض .

لقد هيأ نفسه للتعذيب ، فهو لن ينكر اشتراكه بالمظاهرة ، ولن يبوح بكلمة عن المسدس الذى طمره فى الساقية ، وقد وطن نفسه – كوسيلة للنجاة – إذا اشتد عليه الألم على أن يبوح بأسماء طلاب من أنصار الفرنسيين الذين سيثبت التحقيق فيما بعد براءتهم .

لم يكن الأخضر يشعر بكل هذا إلا فى شكله العام المبهم ، فهو لم يعد يشعر برأسه ، وظلت بقية جسمه شبه سليمة ، وأخذ ألم بعيد وحاد يتوضع شيئاً فشيئاً فى خاصرتيه وركبتيه وكعبيه وقفص صدره وفكيه .

ثم تركهم الأخضر يعصبون يديه ورجليه ، ثم ثبت الشرطيان بين الحبلين دفة خشبية طويلة من شأنها تثبيت السجين ، ثم حمل وقذف فى الحوض . لقد خدشت كتفه اليسرى ، فوجد فى جموده عن الحركة وسيلة لإبقاء نصف

جسمه غير مغمور بالماء فى شكل زاوية قائمة ، وكانت الدفة قد هصرت ذقنه ، وكان الأخضر فى انتفاضاته ليبرز رأسه رأسه يصل أحياناً إلى مستوى رجال الشرطة .

أغمض الأخضر عينيه .

فشعر بشيء بارد يضغط على شفتيه عرف عند المذاق أنهم وضعوا له حجراً كبيراً يصل حتى البلعوم ليمنعوه من إطباق فمه ، ثم وضعوا له شيئاً آخر استطاع أيضاً تحديد ماهيته : قطعة من أنبوب معدنى يستعمل للسقى .

سالت المياه !

فلم يعد يستطيع الاحتمال .

لم يعد باستطاعته أن يشرب أكثر مما شرب .

وشعر كأن أعصابه جميعاً تتلوى ، وأن جرعة مثلجة تقلب له أحشاءه

الماء يسيل .

وكان الضابط يزيد فى إسالة الماء تدريجيا .

وكان الأخضر يزداد انتفاضاً .

ـ ياله من متوحش ، إنه يريد أن يقتل نفسه .

ـ هيا ! تكلم ، إنك شاب ، وسيطلق سراحك .

ـ من هم رؤساؤك ؟
ـ هيا يا ( . . . ) هل تريد أن تفطس ؟
لقد عزم الأخضر على البوح ، وأشار بإيقاف سيلان الماء !
ـ رؤساؤنا ؟ ليس لنا رؤساء ، نعم ، نعم ، سأتكلم ، انزعوا أولا الأنبوب . إن رؤساءنا :
ـ إنه يسخر بنا ابن المومس !
ـ وانهالت عليه الضربات .
ـ إن سوط الضابط لم تعد تكفى .
ـ وتناول الشرطيون حبالا رطبة أخرى .
وانهالوا على إخمص القدمين كأنهم حطابون فى غابة .
وكان الأخضر يسمع لهث الشرطيين .
وعرف لماذا استهدف الشرطيون أخمص القدمين .
فثنى ركبتيه وغطس . . .
وهذه صورة عن القضاء الاستعمارى : « قال مزيان : ذهبت لاستشارة محاميين كبيرين فى قسطنطينة ، فبعت آخر قطعة أرض لأدفع لهما أجرهما ، بعد أن صرفت ما ادخرته وأمى على الدعوى وكانت الحكاية عبارة عن خطب ، وبعد ثلاث ساعات كاملة أى منذ أن بدأ المحامى « كونى »

بالكلام ، أطرق القضاة وتهامسوا فيما بينهم ، وكنت عند كل مقطع أضع على طاولة الدفاع ورقة من فئة المائة فرنك ، وحاول الحراس إخراجى من القاعة ، وكان الترجمان ينقل بأمانة الكلمات المنتزعة من فم والدى ، وكان تأثر الحضور بادياً ، وبعد المرافعة ترك القضاة القاعة بخطى وئيدة وكنت أجد فى وجوههم سيماء الملائكة بأثوابهم وقلانسهم الخبيثة . وكان المحامى « كونى » يبتسم لوالدى علامة البراءة ، ثم عاد القضاة ، وكان الحكم . . . بالإعدام » .

إن الرواية كتبت بمهارة فائقة ، ففى خلال مائتين وخمسين صفحة استطاع المؤلف أن يستأثر باهتمام القارئ وذلك على الرغم من تشعب الحوادث وتعقيد الأسلوب الروائى . حقا إن كاتب ياسين . . . كاتب من الطراز العالى .

## ٥ ـ مولود المامرى

من أدباء الطليعة فى الجزائر ، جمع بين الموهبة الأدبية والنضال الفكرى الواعى ، وهو واحد من الفئة الممتازة التى أسهمت فى بلورة الثورة ونقلها من نطاق السخط الفردى والشكوى المبهمة والحيرة المضللة إلى ميدان الثورة الجماعية المنظمة والنضال الشعبى المركز ، كما عملت على إقامة الحدود الفاصلة بين القومية الفرنسية التى تحاول تمثل الشعب الجزائرى وبين القومية الجزائرية ذات الخصائص والمقومات الروحية والمادية .

إن الكتاب الجزائريين يختلفون فى طريقة إظهار معالم القومية الجزائرية والمناداة بوجودها ، ففى الوقت الذى نجد بعضهم يسلك طريق الإيحاء والتورية والتلميح الخفى والأسلوب الفنى نجد آخرين ومنهم مولود المامرى يتجهون نحو الصراحة ، منزلين قضية « الشخصية الجزائرية » والواقع القومى منزلة العقيدة والموضوع الأساسى فى أدبهم آثارهم . ولا أدل على ذلك من جملة يقولها دوماً أحد أبطال رواية مولود المامرى كلما سئل

عن سبب تصرفاته الغريبة : « أنا جزائرى ! » وقد سبق مولود المامرى فى عمله الأدبى إلى التعرض لقضايا كثيرة لها علاقة بحياة بلاده وكفاحها الاستقلالى ، منها قضية الاستعمار ، فهو يرى أن الاستعمار ليس نظاماً سياسيا واقتصاديا مبنيا على السطو والعدوان واللصوصية فحسب ، بل هو نظام يستمد فاعليته من نظرة رجعية تحتقر البشر ، وفلسفة لا تؤمن بالقيم الخلقية والمكتسبات الحضارية التى جاهدت الإنسانية عصوراً من أجل تشييدها والحفاظ عليها . فى رواية نوم الرجال العادل يورد مولود المامرى جملة على لسان أحد سكان القرية التى بطش بها الحاكم المستعمر الظالم ، وهذه الجملة بعيدة الدلالة على عقلية المستعمرين : « أعتقد أنك تحتقر الناس إلى حد بعيد ما دمت ترضى أن تحكمهم على هذه الشاكلة ! »

وتتصف أفكار مولود المامرى بالنزعة التقدمية الثورية ، والوعى القومى الذى يقدس نضال الشعوب وتعتبره أساساً للتحرر من العبودية ، ولذا تراه يعتقد أن روح الجزائر النضالية لم تخمد على مر السنين ، بل تخللها فترات خمود ، خمود النار تحت الرماد ، فالنضال القومى ضد الاحتلال لم ينقطع منذ عبد القادر إلى معارك جيش التحرير ، وهو ينادى بأن الثقافة الفرنسية

إنما هى ستار يخفى وراءه المستعمرون غاياتهم ، وتسويغ للاستعمار نفسه ، وإذا عرفنا أن الشعوب المغلوبة كشعب الجزائر لم تنل من هذه الثقافة إلا النذر اليسير نظراً للعوائق التى أقيمت فى طريق نشر العلم والمعرفة بينهم وحصرها فى فئة ضئيلة ، أمكننا إدراك مقدار التضليل والتمويه الذى يغلف قضية الثقافة وبعدها عن الأغراض النبيلة التى يجب أن تهدف إليها الثقافة الإنسانية الواسعة التى يجب أن تغدق على الشعوب دون حساب أو غاية أو غرض بعيد أو قريب سوى ترقية الإنسان وإعلاء شأن العقل والروح.

ولد مولود المامرى فى ٢٨ ديسمبر ١٩١٧ فى قرية تاوريرت ميمون فى جبال البربر العليا ، وكان يعلم إلى جانب لغته البربرية بالفرنسية عندما غادر مسقط رأسه للالتحاق بمدرسة الرباط الثانوية ، ثم انتسب بعدها إلى ثانويات الجزائروباريز ، واشترك مع الجيش الإفرنسى فى معارك فرنسا وألمانيا وإيطاليا ، ثم ترك الجيش ودرس الأدب فى مدرسة « بن عكنون » فى الجزائر ، وهو يقيم اليوم فى الرباط بعد أن طاردته السلطة الاستعمارية . وقد حدد مولود المامرى موقفه من ثورة الجزائر فى كتاب أرسله إلى صديق سنة ١٩٥٦ جاء فيه : « تطالعنا

كل يوم قائمة جديدة من القتلى ، وموجة جديدة من الحماسة ، إنك تحدثنى عن الأدب . . . كلا لم أعد أكتب منذ سنة كاملة ، لأنني أعتقد أنه لم يعد هناك شيء جدير بالكتابة اللهم إلا المأساة الكبرى ودماء الأبرياء جميع الأبرياء الذين يدفعون ثمن جريمة المجرم الوحيد وهو الاستعمار . . .

والأمل العنيد ، ذلك الذى سوف ينبع من آلام الولادة ، وآمل أن ينبع عن قريب ذلك الشيء الجديد الذى لا محالة سوف ينبع من أرضنا . . إنك تعلم أننى لا أدين الرجال بل النظام ذاته . . . إن الرجال أصيبوا بالعقم لأن المشاعر التى تلازم النظام الاستعمارى لا تبعث الحماسة بل تقف كلها فى المستوى الأسفل والأكثر سلبية والأخطر والأبشع . إن الرجال الذين يزدهرون فى ظل الاستعمار هم المنافقون وتجار السوق السوداء والخونة والنواب المعينون والبلهاء فى القرى والمنحطون والطامعون على غير أساس والمخبرون والقوادون وأصحاب القلوب السوداء ، ليس هناك فى ظل الاستعمار قديس ولا بطل حتى ولا الكفاءة التى لا يقدرها الاستعمار ، فالاستعمار لا يرفع أحداً بل ينشر اليأس والجدب ، وهو لا يجمع بل يفرق ويعزل ، الاستعمار يدفن كل إنسان فى عزلة ليس فيها أمل . » .

وقد ألف مولود المامرى روايتين الأولى « التل المنسى » والثانية « نوم الرجل العادل » وتعتبر الأولى من أقوى ما أنتجه كتاب الجزائر ذوو التعبير باللغة الفرنسية ، فهى تترك أثراً وانطباعاً شديدين فى القارئ بما تحويه من صور قوية عن قبائل البربر والوسط الذى تعيش فيه ، وتجرى حوادث الرواية فى إحدى قراها الجبلية « تاسكا » ، فقد كان يعيش فى هذه القرية قبل الحرب الأخيرة جماعة من الجزائريين عيشة عزلة وانقطاع عن العالم الخارجى ، يسودها الملل والبطالة والتناحر العاطفى الشديد ، حتى إذا جاءت الحرب كشفتهم لأنفسهم وفرقتهم أيدى سبأ ، وتبدو من خلال الإطار الروائى العاطفى مظاهر هذا المجتمع البربرى القبيلى المعذب الذى حرم نعم الحضارة والعيش اللائق الشريف ، وسيطرت عليه العادات والتقاليد والغيبيات ، كما تبدو فى الزواية مظاهر الحرب فى أفريقيا الشمالية من سنة ١٩٤٢ إلى ١٩٤٤ وما جرته على الجزائر من بؤس وعوز ونقص فى الرجال .

* * *

سأل أحد أبطال رواية مولود المامرى صاحبه : « هل أنت فى السجن؟ فأجابه أنا فى الجزائر . قال : إن كلا الأمرين سواء ! »

فإذا كانت الجزائر سجنًا كبيرًا تحده أسوار الاستعمار ، وتكبل نزلاءه الجزائريين قيود المستعمرين وإرهابهم ، فإن قرية « تاسكا » فى جبال البربر حجرة صغيرة ضمن السجن الكبير تبدو فيها الحقيقة الاستعمارية فى شكلها السافر ووضعها الأليم ، كما تبدو الحقيقة الإنسانية فى تناحر ناسها ونضالهم المادى وسوراتهم العاطفية فى جو من الملل والكآبة والقلق النفسانى والعوز والخضوع لوطأة العادات القبيلية والتقاليد والعصبيات ، فالقرية على صغرها وبعدها عن المدن تعج بالحيوية والمفاجئات وتناحر الشخصيات تؤثر فى القارئ وتحمله على الاستجابة العاطفية والمشاركة الوجدانية مع الحوادث والأشخاص .

وفى القرية كغيرها من القرى جيلان ، جيل قديم متمسك بالماضى متصف بالقناعة والرضى بالمقسوم ، مؤمن بالغيبيات والقضاء والقدر ، وجيل جديد متعلم على الطريقة الأوربية ، متمرد على الماضى والحاضر معاً ، يأبى على الجيل القديم تمسكه بالقديم ، ساخط على الأوضاع الحاضرة ، ينشد حالا مبهمة تختلف عن الحال الحاضرة ، ويتمثل الجديد فى شخصيات مكران ، ومناس ، ومدور ، ووالى ، ورافع يمثل كل واحد منهم اتجاهاً فى الحياة ويدورون جميعاً فى حلقة

مفرغة من الملل والفراغ الفكرى الناشئ عن انعدام الغاية والانعزال عن العالم الخارجى ، ولعل أكثرهم تمرداً وتناقضاً مع محيطه هو المعلم مدور المتخرج من دار المعلمين فى « بوذريعة » ، فهو يمثل الأفكار الجريئة التقدمية ، والفردية المتمردة على التقاليد المحترمة والأوضاع المقدسة .

وكان من الممكن أن تجرى حياة القرية فى جو مقفل بعيد عن الصخب وأصداء المدينة لولا تلك الهزة العنيفة التى اعترتها من جراء الحرب العالمية الثانية وتجنيد شبان القرية واشتداد وطأة الحرمان على أهل القرية وقد أفاد المؤلف من تجربته الذاتية فى الحرب عندما صحب الجيش الفرنسى محارباً فى فرنسا وألمانيا وإيطاليا ، فإن مآسى الحرب قد أبقت فى ذهنه وقلبه صوراً انعكست على روايته فشغلت ناحية مؤثرة منها .

فحوادث رواية « التل المنسى » تجري تحت تأثير حقيقتين :

ثابتة : وهى التقاليد الاجتماعية بما فيها من حسن وردىء ، طارئة متحركة : وهى الحرب العالمية الثانية وانعكاسها على أفريقيا الشمالية ويتخللهما حوادث ثانوية اقتضتها أجواء الرواية وحبكتها الفنى .

إن قصة الحروب بالنسبة للجزائر قصة مروعة ، وهى لاشك واجدة فى نفوس كتابها مكاناً مؤلماً ، لأن الحروب التى شنتها فرنسا فى المستعمرات أو فى الأصقاع الأوربية تحمل أعباءها البشرية أبناء الجزائر ، ، فما أكثر الدماء التى سفكت من فرنسا ولأجل فرنسا ، وما أكثر الضحايا الجزائريين الذين سقطوا دون غاية أو هدف ، ولئن جنت فرنسا من حروبها وبخاصة الاستعمارية منها فوائد ومغانم وأسلاب فإن الجزائر خاصة وأفريقيا الشمالية عامة لم تجن سوى اليتم والحزن والدماء والدموع . على أن الجزائريين كانوا يتوهمون أن الحرب الأخيرة ستحمل إليهم تباشير الخلاص من حياتهم المعذبة وأنهم سيذوقون بعد علقم الاستعمار حلاوة الحرية ، وهم على معرفتهم بمساوئ الحرب وثمنها الباهظ فإنهم كانوا يتمنونها ويتلهفون إلى حدوثها ففى كل قرية من قرى الجزائر كان « الناس لا يتحدثون إلا عن الحرب ، النساء عند العين وفى الطرقات ، والرجال فى الساحة والمقاهى والأسواق ، وكان الناس لأسباب متنوعة ودوافع لامنطقية غريبة ينتظرون بشىء من الزهو قدوم الحرب على الرغم من أنه لن يصيبهم منها إلا الخراب ، وأخيراً فإن الحرب حادث أساسى [١]، لأن الأرواح تزهق فيها ، وهى أيضاً حادث

هام لأنها تصيب الناس جميعاً برشاشها فتكسر بذلك رتابة العيش ، كأن كل واحد قد مل الانتظار ومعرفة اليوم ما شاهده بالأمس ، فكانوا بذلك يزيدون عبء قبولهم الصريح أو الضمنى سرعة الاتجاه الجنونى نحو الحل السخيف ، والحق أن كل شيء كان يدفعهم نحو ذلك : دعاوة الصحف والإذاعة والإشاعات ذات المصدر المدروس بدقة وأخيراً . . . البؤس ، بل هذا الجبن وهذا العوز اللذان هبطا منذ سنين على قرية « تاسكا » وبقية القرى الجبلية ، فلعلهم واجدون فى الحرب دواء ناجعاً حتى أصبح الجميع يريدون الحرب أو على الأقل ينتظرونها بشيء من الإبهام » .

حتى إذا دنت الساعة لسوق هؤلاء الشبان إلى المجازر لكى « يسمنوا الغربان فى مكان ما من فرنسا وألمانيا » ارتفعت أمامك صيحات الألم المألوفة فقد كان « الأهالى يبكون أولادهم كما لو وصلت أنباء موتهم فى ساحات القتال ، وكان الليل يضخم ويردد دون انقطاع صدى صراخ النسوة اللواتى سلبن أولادهن ، وكان الظلام يجعل هذه الصرخات أشد هولا ، وكانت المشاعل تنبع من خلال الأبواب فتضيء هذه المرة جماعات نلمح بينها خيالات النسوة يلطمن وجوههن أو يقلبن كفوفهن ، ولم يعد

أحد يفكر بالتقاليد واللياقات وسط هذا الحزن الواسع العام الذى هبط على قرية « تاسكا » .

وكان من الطبيعى أن تعانى القرية فى الحرب من صنوف الحرمان أضعاف ما تعانيه فى أيام السلم ، فقد ازدادت المجاعة حتى صار « الناس يخرجون إلى الطرقات وبأيديهم البنادق يرجونك بأدب أن تقتسم معهم مؤونة الشعير التى تحملها إلى أولادك ، لأن أولادهم ليس لديهم شىء يأكلونه » ، وقيل إن طبيب المقاطعة فتح بطن شاب وجد ميتاً على قارعة الطريق فوجد حشيشاً غير مهضوم ! » واكتملت الصورة بزيادة أفواج المتسولين الذين كانوا « يتنقلون على الأبواب بأثوابهم الرثة وعظامهم الناتئة وأصواتهم الرخوة » . وحار الناس تجاه هذا البؤس المنتشر فقد « بلغ من كثرة الشحاذين ذوى العيون الفارغة الذين يجررون على الأبواب أرجلهم الدامية والمتشققة حتى ليشك الإنسان فى مقدرة الله عزوجل على إشباعهم وإلباسهم ! » زد على ذلك غلاء الأسعار وجشع المرابين وضآلة الأجور وتفشى البطالة واختفاء الحاجيات مما عاد بالحياة إلى عهود البدائية ، ولا تسل عن الردة النفسية فى نفوس القرويين فقد كانت « الحرب تثقل بوطأتها على الأشياء فتجعلها أكثر

اختصاراً وأكثر كآبة » حتى إذا انتهت الحرب وعاد من الجزائريين من كتبت له السلامة والعمر الطويل وجدوا أن هذه الحرب لم تحدث تغييراً كانوا ينتظرونه ، فلم يفدهم تحمسهم للحرب واكتواؤهم بنارها ، كما لم يفدهم تحمسهم لستالين وتسميته بأبي الشوارب ، فإن الحرب لم تقض على القلق المسلط على القرية ، ولم تخفف من الفقر والبؤس بل زادت فى وطأتهما ، فعاد الشبان من جديد إلى الهجرة طلباً للعيش « ففرغت الأسواق مرة أخرى من صخبهم القوى العنيف ، فأصبحت نظيفة باردة ، حتى إن الفتيات اللواتى لم يعد أحد يترصدهن على العين ينقلن عدداً محدوداً من جرار الماء فى حين أنهن فى الماضى كن يرحن ويجئن كأنهن كما يقول والى يفرغن جرارهم فى أوعية مثقوبة . . . ولما حرمت العين والدروب من ضحكات الفتيات وعبثهن أضحت كئيبة وهادئة كمحاكمات الشيوخ العقلية ! » .

وكان لابد لأهل القرية من أن يعتريهم التشاؤم وأن يلتمسوا لهذا البؤس سبباً غيبيا يتناسب وعقليتهم ونظرتهم إلى الحياة ، فقد شعروا أن القرية « تعانى مرضاً غريباً لا يستطاع الوصول إليه ، فهو فى كل مكان ولا نجده فى مكان . . . وقد جربنا عبثاً جميع الأدوية ، ثم لم يعرف أحد منا سبب هذا

الداء ، هل أغضبنا وليا من أولياء الله ؟ أم هل تجاوز الشبان الحدود الأخلاقية ، أم هل فكر الشيوخ فى مجالسهم تفكيراً خاطئاً أو اتخذوا تدابير ظالمة ؟ فى سنتين متواليتين جفت الينابيع فصار علينا أن ننحدر إلى بطن الوادى لجلب الماء ، وأحرق البرد زرعنا ، وقد أطفأنا فى الصيف ذاته أربع حرائق فى غابات « أفران » لم يفصل بين حريق وآخر سوى أيام ، ولم يعد الأولاد يتشاجرون بل يجلسون فى حلقات فى الساحة كالشيوخ يتكلمون عن السيارات وأسعار الغلال .

وصارت نساء القرية يلدن الأولاد كالسابق ولكن أكثر المواليد من الإناث ، وكان يموت من المواليد عدد كبير وأكثر الوفيات من الذكور . . . إن ريح النحس قد هبت على « تاسكا » . . . ولكن الأدهى من كل ذلك هى تلك الكآبة التى ترشح من الجدران ، وهذه الحمر البطيئة التى تهبط المنحدر فى « تاكورافت » ، وهذه الثيران الناعسة ، وتلك النسوة اللواتى يحملن الأثقال ويؤدين أعمالهن كسخرة مبتذلة » .

وكان من الطبيعى أن يكون للتقاليد والعادات والأوهام والخرافات مكان فى حياة القوم ، وأثر فى تصرفاتهم وسلوكهم ، وأكثرها من رواسب عصور الانحطاط والتى نجد مثيلها فى

الشرق العربى الإسلامى مع بعض الفوارق المحلية التى تميزت بها إفريقيا الشمالية كشيوع الطرق الصوفية وزيارة الأولياء لحل المشاكل اليومية المستعصية وارتياد الزوايا والتكايا ، لعرض الظلامات والشكاوى فإن الأولياء الذين هم وسطاء بين الله والناس يملكون نفعا وضرا ، ويملكون إنزال المصائب ودفعها عن الناس ولذا وجب الحرص على رضاهم والتضرع إليهم عند الشدائد ألم يقل أحد أبطال الرواية بأن البلاء الذى حل بالقرية سببه أن « سيدى مالك الولى الصالح الذى سهر منذ جوالى أربعة قرون على قريتنا وقبيلتنا قد أهملنا ، حتى عم الذل والملل من العيش ، وفى الحق فإننا عملنا كل شىء لكى تحل اللعنة علينا ، ألم يقترح دلال الخيول عندنا يوماً على مجلس الشيوخ ألا تذبح الخراف والثيران كما هى العادة عند قدوم عيد الأضحى أو عند مقدم الربيع إذ قال بعد أن تساءل عن فائدتها : « إن هذه الضحايا تكلفنا كثيراً من الأموال » ثم إن هناك طالباً من الأزهر قد صرح بأن التضحية مخالفة للدين ، غفر الله له هذا الكفر ، فإنه صغير السن . » .

ولعل النساء وبصورة خاصة العجائز منهن أكثر الناس إيماناً بالشعوذات والسحر والتنجيم وهذا لا يعنى بأن الرجال

بمنجى عن هذا الإيمان والتصديق فإن « موكران » الشاب المثقف لم ينج من سلطان المحيط فقد أطلق امرأته التى يحبها نزولا عند إرادة أبيه لأنها لم تلد له ولداً ، وكانت قبل الطلاق صنعت ما تصنعه كل امرأة مثلها من الاستجارة بالأولياء ودخول حلقات الذكر ، وحمل سلة القش والطواف على القرى للشحاذة وغير ذلك من الوسائل . وقد كانت « عزى » زوج مكران تعتقد أن « العقم عند النساء عقاب على ذنوبهن » وكان هذا الاعتقاد « يدخل فى روع المرأة كالمثقب » . ولما وصلت عزّى إلى مقام الولى ، نزعت نعليها وتقدمت نحو الضريح وقبلت الراية قائلة : « يا عبد الرحمن ! ثم مدت يديها مستعطفة مرة أخرى : يا عبد الرحمن ! لقد تركتنى وحدى مجردة أمام مشيئة الله ! انجدنى . . اعطنى ولداً وسأطلق عليه اسمك » .

وكانت العجائز الجالسات فى حلقة حول الضريح واللواتى ينتسبن إلى الطريقة يرددن وبصوت واحد :

آمين ! بشفاعتك يا عبد الرحمن .

إن أمى هى من أتباعك ، وهى تدعوك ليلا ونهاراً وتنشد كل يوم مدحك يا عبد الرحمن النسّاء .

وسجدت عزى طويلا ، وظلت برهة ساجدة ثم ارتمت على الضريح فقبلته قائلة : انقذ بيتى من الدمار ، وثدنى من العقم وسأنحر لك ثوراً يا عبد الرحمن الرحيم !

فقالت لها العجوز : اطرقى برأسك يا بنيتى أمام مشيئة الله كيلا لا يترك الله وعبد الرحمن ثديك جافاً كينابيع الصيف ، فأطرقت عزى رأسها فوضعت العجوز يدها عليه مرددة ثلاث مرات : يا عبد الرحمن ! بارك هذين الزوجين حتى لا يصبح أحدهما عبئاً على الآخر .

ثم قامت العجوز تصلى ليستجيب عبد الرحمن دعاء الصبية وكان رفيقاتها يرددن بصورة آلية عند نهاية كل دعاء . آمين وكنت تقرأ فى عيون الحاضرات الدهشة لجمال هذه المرأة ، ولم يفهمن كيف أن عاهة ظالمة تصنع هذا المقدار من الألم فى جسم تام الخلقة ! » .

وإذا أردت أن تحضر إحدى حلقات الذكر التى أبدع المؤلف فى تصويرها فاسمع ما يقول : « ثم نهض الجميع لكى يفسحوا المجال فى الوسط ، ثم تقدمت امرأة عجوز من اللواتى جئن للقيام بالحضرة تقودهن واحدة واحدة إلى منتصف القاعة

فيتكدس فى كتلة كبيرة حية ، حتى لا يكاد يتميز سوى قطع القماش لأن الجميع أرخين رؤوسهن .

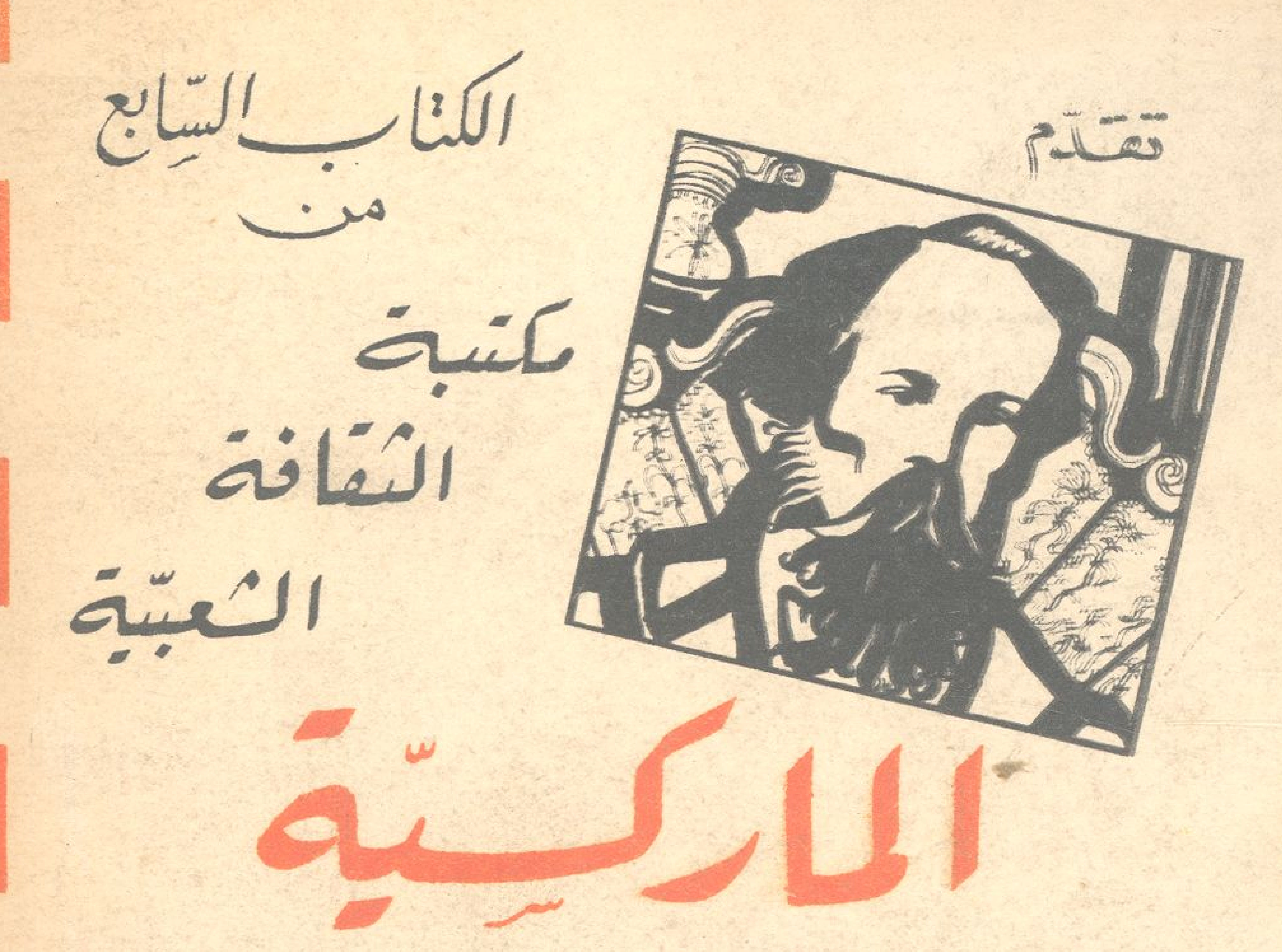
وأخذت الموسيقى تصدح ، موسيقى وحشية، رتيبة كضربات المطارق عنيفة تارة وحلوة ناعمة كالقبلة تارة أخرى . وفى كل زاوية رجال ونساء تهزهم القشعريرة ، وكان ينقون كالضفادع من كل مكان ، ويحركون الأكتاف بصورة تشنجية على نغمات الكمان ، حتى إذا سمعت سحبة أخرى من قوس الكمان رمى عدة رجال برانسهم وصرخوا كالوحوش الضارية ، وقفزوا وسط القاعة يرقصون ممسكين أيديهم ، وكنت تسمع أثناء الرقص قضقضة عظامهم . فإن النساء والرجال والشبان والشيوخ الذين شد الهذيان من قواهم قد أخذوا يرقصون بعنف مشكلين حلقة حول كتلة النساء العقيمات دائرة هذيانية . ودامت الحضرة ساعة ، وكانت عزى تسمع سقوط كتل أجسام الدراويش التى أنهكها التعب فيحملهم إخوانهم إلى زاوية المكان بعد أن يكونوا قد غطوا بالبرانس أجسادهم المتصببة عرقاً ، وبعد ساعة لم يبق منهم سوى اثنين ، فنادى صاحب العمامة الزرقاء وأصحابه كأنه آت من الأعماق وأمرهم بإخماد الرجلين الهائجين ، ثم علا أنين الكمان كأنها دقات بلورية

متباعدة مؤذنة بنهاية الحضرة وحــل الصمت العميق مكان الضجيج ولم يعد يسمع من بعيد سوى أنين الدراويش المنبعث من مختلف الزوايا » .

وهناك لوحات أجيد صنعها تجمع بين روعة الفن التصويرى والوثيقة الاجتماعية مما يجعل من « التل المنسى » رواية جبال القبائل الجزائرية التى يجهل القارئ العربى عنها أشياء عن عاداتها ونمط عيشها وأحوال أهلها .

يصدر قريباً

تقدم



الكتاب السابع من

مكتبة الثقافة الشعبية

# الماركسية

تأليف : فردريك إنجلز — ترجمة : ماهر نسيم

- كتاب فريد في تبويبه طال شوق الباحثين لمثله
- شامل للنظرية الماركسية التي شغلت الأذهان زماناً طويلاً
- يهم جميع رجال المال والاقتصاد و
- تناول الكلام على علاقة رأس المال بالصناعة و
- بنهاية الكتاب خاتمة وتعليق بق

مع باعة الصحف والمكتبات

دار المعارف للطباعة والنشر

ملتزم التوزيع : مؤسسة المطبوعات الحديثة — ٣ شارع ماسبيرو — القاهرة